

جرجيس فتح الله

يَقْظَةُ الْكُرْدِ

شَارِجُ سَيَّاسِي

١٩٢٥ - ١٩٠٠

و

مما يتناول النزاع على جنوب كردستان أمام عصبة الأمم
مع الوثائق والمذكرات المتعلقة به

أربيل ٢٠٠٢

دار ئاراس للطباعة والنشر



السلسلة الثقافية

*

صاحب الإمتياز: شوكت شيخ يزدين

رئيس التحرير: بدران أحمد حبيب

العنوان: دار ئاراس للطباعة والنشر - حي - S1 - اربيل - كردستان العراق
ص.ب رقم: ٩

جرجیس فتح اللہ

یَقْظَةُ الْكُرْدِ

تَارِخِ سِیَاسِیِّ

۱۹۲۵ - ۱۹۰۰
ع

محلایتناول الفراع علی مهنوب کوردستان امام عصبة الأمم
مع الوثائق والمذكرات المتعلقة به

أربیل ۲۰۰۲

اسم الكتاب: يقظة الكرد - تاريخ سياسي ١٩٠٠-١٩٢٥
تأليف: جرجيس فتح الله
من منشورات ثاراس رقم: ١٣٤
التصميم والإخراج الفني: شاخوان كركوكي
الغلاف: شكار عفان النقشبندي
خطوط الغلاف: الخطاط محمد زاده
تنضيد: نثار عبدالله
تصحيح: عبدالرزاق عبدالله
الإشراف على الطبع: عبدالرحمن محمود
الطبعة الأولى: مطبعة وزارة التربية - أربيل ٢٠٠٢
رقم الإيداع في مكتبة المديرية العامة للثقافة والفنون في أربيل: ٢٠٠٢/٦٢
عدد النسخ ٢٠٠

حول ظروف تأليف الكتاب

«إنني رأيتُ أنه لا يكتُب أحدُ كتاباً في يومه إلا قال في غده: لو غُيِّرَ هذا لكان أحسن. ولو زيد هذا لكان يُستحسن. ولو قُدم هذا لكان أفضل. ولو تُرك هذا لكان أجمل. وهذا من أعظم العُبر وهو دليل على إستيلاء النقص على جملة البشر.»
العماد الأصفاني ١١٢٥ - ١٢٠٠م

لتأليف كل كتاب قصّة حبَل ومخاض وولادة، ووراء كُلّ تأليف خلفية أو فكرة. وما سَأدوته عن كتاب "يقظة الكرد"، فيه من غرائب الإتفاق وتقلّبات الخطوط إقبالاً وإدباراً بله من المفاجآت ما يصلح أن يجعل منه أي روائي هيكلاً لقصة ممتعة. وأنا أعرضها باختصار هنا:

في العام ١٩٧٣ رمتني حظوظي بإقامة شبه إضطرابية في بيروت إلا أنني وجدت فيها فرصة لتعاقدي على نشر عددٍ من مؤلفاتي ومترجماتي وشروعي في تأليف أخرى. وإضطرابي الى إعداد شروح وتعليقات على الكتب التي يجري طبعها كان يقتضيّني مراجعة مكتبة الجامعة الأمريكية وقد لقيت عوناً من أصدقائي أساتذة الجامعة في الحصول على الإجازة الواجبة من رئاستها لمراجعة القسم الخاص الوثائقي للمكتبة مما لايتاح لغير الكتاب والباحثين. وفيها عثرتُ على النص الكامل للتقرير الذي نظّمته لجنة التحقيق الدولية التابعة لعصبة الأمم حول النزاع على الحدود بين تركيا والدولة العراقية الجديدة الذي كان سيتقرر به مصير (جنوب كردستان) وهو ولاية الموصل العثمانية.

ذُكر في الصحيفة الأولى من التقرير أنه طبع في مطابع لوزان العام ١٩٢٥ وبأمر من مكتب سكرتارية عصبة الأمم. وهو مطبوع بنصّيه الفرنسي والإنكليزي يفصل بينهما خطٌّ على طول الصفحة ويكمل بتسعين صحيفة من القطع الكبير ويلحق به خرائط

موقعية ترسم مجالات حركة اللجنة. كنتُ كمن عثر على لُقية من غير ميعاد أو سَبَقِ بحثٍ. فمع أن هذا التقرير ما كان يعدّ من قبيل الآثار الكتابيّة النادرة إلّا أن إهتمامي بالحصول على نسخة منه زاد كثيراً بعد صدور كتاب الميجر (إدموندز) (كرد وترك وعرب) في ١٩٥٧ بفصليه الأخيرين اللذين إستعرض فيهما عمل تلك اللجنة موقعيّاً وكان واحداً من مستشاريها وأصحاب الأدوار المهمة فيها ولاسيما تأكيده فيه - موقف الأغليبيّة الكردية في الولاية الذي حَسَمَ النزاع بشكل قاطع وقاد اللجنة الدولية الى إتخاذ القرار الصائب الذي تبنته عصبة الأمم فيما بعد.

يفضح هذان الفصلان سرّ تستر الحكومة العراقية على هذا التقرير، بعدم ترجمته الى اللغة العربيّة رغم أنه واحد من أهم الوثائق التاريخية بل أهمها طراً بل مرجع لا يُستغنى عنه في دراسة تاريخ تكوين العراق الحديث. وكما تعمّدت الحكومات العراقية المتعاقبة تجاهل هذا الواجب. كذلك تجاهله الباحثون والمؤرخون العراقيون. فأنت لا تجد بمدى علمي في أي كتاب أصدرته المطابع في هذا الموضوع نصّاً مقتبساً منه. ولا كاتباً أو مؤرخاً واحداً يعتمد مرجعاً من المراجع الرئيسة أو الفرعية. وقد يأتي أحدهم الى التنويه به عرضاً لغرض معين بعيد جداً عن إبراز الدور الكردي الجسيم فيه وليس أكثر من هذا.

وبالمقابل لم يخطر ببال واحدٍ من الكتاب الوطنيين الكرد عمل ترجمة كردية للتقرير وهو واحدٌ من أمضى الأسلحة في ميدان المعركة الفكرية التحريرية التي يخوضها هذا الشعب. ولا أدري إن كان هناك ترجمة تركية له وهو بطبيعة الحال أمرٌ مستبعد.

قبل صدور كتاب [إدموندز] بفترة قصيرة على ما أخطر. صدر في بغداد كتاب عنوانه [مشكلة الموصل: دراسة في الدبلوماسية العراقية الإنكليزية - التركية]. من عنوانه هذا وقبل أن أشرع في قراءته - قلتُ لنفسِي ها إنَّ كاتباً عراقياً جاء أخيراً ليفضح مؤامرة الصمت على تقرير اللجنة الدوليّة. إذ وعلى البداة لاسبيل له بعد إتخاذه هذا العنوان الصارخ لكتابه ألا أن يكون التقرير عموداً فقريّاً لمؤلّفه أو مرجعاً مركزياً على الأقل.

إلّا أن الدكتور فاضل حسين مؤلف الكتاب كان أميناً على سرّ الحكومات العراقيّة في إستبعاد النتائج التي إحتوتها هذه الوثيقة المركزية من مجال بحثه في كتابه الذي

إمتياز بطبعات ثلاث. فقد وجدتُ أنه أشار إليه فحسب إشارة عارضة في حاشيتين أو ثلاث بتجنّ فاضح على أسلوب البحث الحيادي. وما عليك إلا أن تقوم بمقارنة بين محتويات التقرير الدولي وبين ماورد في الفصل الخامس من كتاب الدكتور فاضل حسين الذي صدره بعنوان «قرار مجلس العصبة عن الموصل»^(١) حتى في هذا الفصل ذي الصحائف الكثيرة، لا تجد من المؤلف إلا إشارة عابرة واحدة الى نتائج التقرير في الحاشية. لم أتعرف بالدكتور فاضل حسين لكن ذكروا لي أنه كان من أعضاء الحزب الوطني الديمقراطي وأنه يعدّ بين الكتاب المؤرخين التقدميين المتحررين. فإذا كانت الحال هكذا به. فكيف بالمؤرخين والكتاب العرب القوميين؟

الخلاصة إنّ نشر نصّ التقرير والقرارات التي إتخذتها اللجنة كان سيكشف عن الدور الكردي الحاسم في إبقاء ولاية الموصل (جنوب كردستان) ضمن حدود الدولة العراقية. ويبدو أن الحكومات العراقية المتعاقبة ماكانت تريد أن يطلع الرأى العام على هذا الفضل.

وأتفق أن كان وقوع النصّ بيدي بداية العام الأخير من الفترة الإنتقالية التي حددها بيان الحادي عشر من آذار ١٩٧٠. فوجدت من المصلحة انتهاز هذا التزامن لترجمة التقرير ونشره، للتدليل بأن التسليم بمبدأ الحكم الذاتي لكردستان العراق كما أثبتته بيان آذار إنّما هو حقّ قديم رُدّ الى أهله بعد خمسة وأربعين عاماً.

لم يكن بالإمكان إستعارة النسخة الأصلية من خزانة مكتبة الجامعة الخاصة إلا أن أصدقائي الأساتذة عملوا لي نسخة مصورة بتسهيلات الجامعة التكنيّة. وحملت النص الى كردستان وأنجزت الترجمة.

كان يشوب النصّ أخطاء مطبعية طفيفة. كما وجدتُ إختلافاً يسيراً محدوداً جداً في النص الإنكليزي عن الفرنسي فإعتمدت هذا الأخير ولم أبال بسقوط عبارة أو عبارتين في النصّ الإنكليزي إذ يظهر ان كاتبه سمح لنفسه ببعض الحرية في إسقاط هذه العبارة أو تلك أو إختصارها. والنص الفرنسي هو موضع الإعتماد على كلّ حال دبلوماسياً. كما قوّمتُ بعض أسماء المواقع التي لم تكن واضحة بسبب التهجئة ولم أجد حاجة للإشارة إليها. وحاولت جهد الإمكان الإقتضاب في التعليق فقصرته تقريباً على

التعريف بالمؤلفين والمؤرخين والجغرافيين والشخصيات التاريخية الذين نوه بهم التقرير حيثما دعت الحاجة الى ذلك. ثم رأيت أن أقدم التقرير بتوسطة تاريخية للوقائع والأحداث التي أدت الى النزاع على ولاية الموصل (جنوب كردستان) بين تركيا وبين الفاتح البريطاني. وكيف أدى الأمر الى عرض النزاع على عصبة الأمم وهي أول هيئة دولية عرفها المجتمع البشري. وكيف لجأت العصبة إلى تعيين اللجنة وفقاً لما قضت به معاهدة لوزان (١٩٢٣).

في ذلك الحين وأنا في المنطقة المحررة، لم يكن بمتناول يدي المراجع الكافية لعمل دراسة موثقة مرجعية. بل ولم تكن نيتي وأنا في عجلة من أمري، القيام بهذا ورأيت أن نشر النصّ بحدّ ذاته وفي تلك الظروف يكفي لإراءة وجه الحقّ في المطالب الكردية المشروعة التي بلغت بها ثورة أيلول المرحلة المختتمة ببيان الحادي عشر من آذار بإستعراضه الأسانيد السياسية والتاريخية والجغرافية والإثنية لمنطقة جنوب كردستان لا يضمّها كتاب واحد بمدى علمي. فوقعته المقدمة في ثمان وأربعين صحيفة كبيرة. وبدأ كلّ شيء جاهزاً للطبع في أواخر العام ١٩٧٣ وفي نيتي أن ابعث بهما الى إحدى دور النشر في بيروت على جناح السرعة، عندما وقع مالميس في الحسابان:

قبل إستئناف القتال بين قوى الثورة وبين حكومة بغداد، ربما ببضعة أسابيع. أقبل السيد (عبدالرحمن قاسم) من بغداد للقاء البارزاني، بمعيرة الصديق المرحوم (عبدالرحمن شرفكندي) المعروف بإسمه الأدبي "هزار". وأنا في ديلمان مقرّ السيد البارزاني.

في تلك الساعة من النهار لم يكن الزعيم الكردي في مجلسه. فإنتظره الزائران في غرفتي المصاغبة لمجلسه.

كان السيد (قاسم) في ذلك الحين لاجئاً سياسياً في بغداد وموظفاً في وزارة التخطيط على ما أذكر. ولم أسأله طبعاً عن سبب قدومه. رغم إنني أحسست بوجود علاقة لزيارته بتأزم الوضع بين الثورة والسلطة. وما أذكر أنه سألني عما يستأثر وقتي من كتابة أو بحث فأعلمته بأني مشغول بوضع مسودة لمشروع قانون بالحكم الذاتي. فإهتّم وطلب أن يلقي عليه نظرة فدفعت بالمسودة اليه وأظنّه تناول قلماً وورقة وسجل من المسودة نقاطاً. ثم وضعت بيده ترجمة تقرير عصبة الأمم في مسألة الحدود وولاية

الموصل وهو كما قلتُ جاهز وكان بملفين وأنبأته بأني على وشك إرساله للطبع في بيروت. ولا أذكر ما قاله معقّباً إلا أنه كان تشجيعاً وإحتشاثاً بلزوم طبعه. ثم أنبأنا بمجيء السيد البارزاني وإستعدادده لرؤية الزائرين وترك (قاسملو) حقيبة سفره عندي كما جاء المرحوم صابر البارزاني فخرجنا في جولة بعيداً عن ديلمان وعدت متأخراً وقد تركنا (قاسملو) بعد مقابلة البارزاني.

ثم تسارعت الأحداث فألهمتنا عن كل شيء - لتنتهي بتجدد القتال. وصارت ديلمان هدفاً مركزاً للقصف الجوي نهاراً وليلاً وانتقل البارزاني ومقره الى جوار حاجي عمران وكنت آخر النازحين الى المنطقة عينها. ثم آلت الثورة الى ما آلت ووجب النزوح من أرض الوطن الى بلاد المنفى. وكان عليّ أن اختار القليل مما سأحمله معي بطابع العجلة والظروف العصيبة وهو مما أتيتُ الى وصفه في كتابي «زيارة للماضي القريب». وخلفت ورائي كتباً وأسفاراً ومدونات إلا أني حرصت على حمل ما خطّه قلمي وما كتبته من ملحوظات وتعليقات.

وغاب تقرير اللجنة الدولية عن ذهني تماماً، وكلّ اعتقادي إني حملته معي ولم أشعر بفقدان المخطوطة إلا بعد أن إستقرّ بي المقام في «كرج» وبدأت في إفتقاد وتنظيم ما حملته معي ولم يكن المخطوط من بينها.

راح ظنيّ في أوّل الأمر الى اني إستودعته الصديق «صالح محمود البارزاني». وهو من يعقّب ما أكتبه ومن لا أحبس عليه كتاباً للقراءة أو أبحاثاً أكتبها. وسألته وهو على علم به سابق - فنفي إعارتي إياه وتذكّر لي أنه كان يعقّب مراحل الترجمة وإقتراح أن أحمل سؤالي للمرحوم إدريس وللسيد مسعود نجليّ البارزاني. ففعلتُ فنفياً أن يكون لهما علم به.

من عادتني إنني أبوء بإتهام نفسي أولاً في إهمال وتقصير أو نسيان فلا أعزوه لأحدٍ غيري. وعلى هذا الأساس رحت أحاول إقناع نفسي بالتفسير الوحيد الميسور: أعني إنني أغفلته عند قيامي بفرز ما أحمله معي وخلفته ورائي سهواً وقلة فطنة وصرتُ بالتدريج أعمل على إخراجها من دائرة تفكيري وإدراجه في قائمة الضائع وحكم المفقود. مرّت أعوامٌ ثلاثة عشر تقريباً وأنا في إيران. وفي العام ١٩٨٧ أعلنتني وزارة الداخلية بأمرٍ وزيرها السيد محتشمي «شخصاً غير مرغوب فيه persona non grata»

وسُحب عني حق اللجوء السياسي وأمرت بمغادرة البلاد فعرضت الحكومة السويدية قبولها لي لاجئاً سياسياً وهيأت لي أسباب الرحيل فتركت إيران في ٢٤ من نيسان ١٩٨٨ واخترت مدينة كاترينهولم مسكناً بناءً على نصيحة الإخوان الكرد اللاجئين الساكنين فيها. ومن بين الكثيرين لقيت في الشاعر والأديب الكردي (مؤيد طيب) أنيساً وصديقاً دائماً الزيارة.

ذات يوم ولم يمرّ عليّ غير بضعة عشر شهراً. حمل اليّ السيد مؤيد هذا النبأ الغريب: قال إن شخصاً يعرف باسم (ملاً بختيار) يزعم أنّ في حوزته مخطوطاً لي وعليه إسمي، وإنه يستؤمن على إعادته اليّ.

وزاد (مؤيد) عند سؤالي فقال: إن ملا بختيار هذا قدم حديثاً من إيران وحصل على حق اللجوء السياسي. وإنّه كان مطارداً من قبل الإتحاد الوطني الكردستاني وهو من أقطابه وقد خرج عليه حيناً من الزمن. إذ ذاك فقط أدركت من يقصده ملا بختيار. وعدت بذاكرتي الى واقعة معينة كان لي فيها دور قبل تركي إيران ببضعة أشهر.

كان لي كما أذكر موعداً مع الدكتور فؤاد معصوم عضو المكتب السياسي للإتحاد الوطني في أحد فنادق العاصمة. فإنتهزت الفرصة قبلها لاستبضع حاجات من سوق في طهران عرف بـ «كوچه عرب». إذ كان يشغل معظم دكاكينه ومحلاته التجارية اللاجئين والمبعدون العراقيون الذين طردتهم بغداد بحجة أصولهم الإيرانية. فقصدت مقهى السيد سامي باقر المعروف بـ (سامي الفيلبي) وهو من أعضاء الحزب الديمقراطي الكردستاني الأقدمين. ووجدت بيده عريضةً معنونة الى سكرتير الإتحاد الوطني الكردستاني العام يجمع عليها توقيع. وتدور حول المطالبة بإخلاء سبيل (ملاً بختيار) المعتقل والمحكوم بالإعدام. وأشار سامي الى امرأة جالسة في ركن قائلاً: هذه زوجته جاءت تستجير خشيةً على حياتها فرأينا أن نكتب هذه المذكرة لتقديمها الى الإتحاد الوطني قبل تنفيذ حكم الموت به.

لم أكن أعرف ملا بختيار لبالصورة ولا بالشهرة ولا بالأسباب التي دعت الى إعتقاله، وخطرت ببالي فكرةً فقلت لسامي دعك من هذه العريضة الآن فأنا على موعد مع الدكتور فؤاد معصوم فتعال معي لنرى ماأمر هذا المعتقل وسأسعى بدوري لأكون واسطة خير.

لأذكر تفاصيل الأسباب التي علل بها الدكتور معصوم الإجراءات المتخذة بحق ملا بختيار هذا ولا يخطر ببالي ماذكر حول تمرده وإعتقاله وهروبه وما الى ذلك إلا أنه أكد لنا بالأمانة هناك للإتحاد ولا لسكرتيره في تنفيذ أي حكم يُنهى حياة المعتقل. وواعد أن ينقل رجائي الخاص بالإفراج عنه الى (مام جلال). وطمان صاحبي لطمانة ذويه بأنه سيوفر له أسباب الراحة ويسهل زيارة ذويه له.

هذا كل ماعلق بذهني حول حامل المخطوطة. إلا أنني بقيت في حيرةٍ لافكرة لي أبداً عما جاءني به.

وعقب السيد مؤيد بقوله: انه سيأتي بنفسه ليسلم لك المخطوط.

وجاء السيد بختيار وقدم نفسه باسمه الحقيقي (حكمت محمد كريم) ليضع بيدي ترجمة تقرير عصابة الأمم حول النزاع على الحدود بمحفظتيه الأصليتين، كاملاً غير منقوص ويخطّ يدي فعلاً. ذلك الذي إفتقدته طوال ثلاثة عشر عاماً وأسقطته من ذاكرتي!!

بطبيعة الحال كان أول سؤالي كيف وقع بيده، ومن هو الذي إئتمنه على إعادته اليّ ومن كان يحتفظ به طوال هذه الفترة؟ قال: «إنه ويعد أن أخلى الإتحاد الوطني سبيله. حلّ في مهاباد ضيفاً على أسرة (قاسملو) وبالضبط في دار شقيق المغدور السيد عبدالرحمن قاسملو وسمّاه «آقاي مهندس». وإن (آقاي مهندس) هذا سألّه وهو في طريقه الى السويد عما إذا كان يعرف (جرجيس فتح الله) الذي يسكن في السويد. فأجابه بالإيجاب. فطلب منه إيصال هذه المخطوطة اليّ وكان قد وجدها بين مخلفات شقيقه (عبدالرحمن) وعليها إسمي وتوقيعي.

مسألة كيفية حيازة (عبدالرحمن قاسملو) ترجمتي، ستبقى سرّاً مدفوناً الى الأبد فهو ليس بين الأحياء وأنا شخصياً لأستطيع أن أعزو لنفسي نزولي طوعاً عن مخطوط لأملك منه نسخة أخرى لإنسان كعبدالرحمن لاتربطني به معرفة وثيقة تسمو الى إستئمانه على مخطوطة معدة للنشر خلال لقاءٍ عرّض لي به في (ديلمان) وهي المرة الأخيرة التي جمعتنا فيها الظروف. وكل ماعلق بذهني من تلك المواجهة، إن المخطوط كان فوق مكتبي عندما تركتُ الغرفة مع المرحوم صابر البارزاني. وإن عبدالرحمن قاسملو كان عليه أن يمرّ بغرفتي بعد لقائه بالبارزاني ليلتقط حقيبة سفره.



المؤلف مع السيد حكمت محمد كريم

في غمرة الفرح بعودة "الإبن الضال". إقترح الحاضرون التقاط صورة لي ولحاميل المخطوط السيد حكمت محمد كريم. وهي الصورة التي تجدها هنا وقد وعدته في حينه أن تظهر مع التقرير عند نشره وهو أقل الممكن من الجزاء إعترافاً بالجميل.

في الفترة التي أعقبت وصول المخطوط. كانت أزمة الكويت تجمع حولها وتحتها وفوقها غيوم صدام مسلح. وإنصرف إهتمامي الى تعقيب مسرى الأحداث المتسارعة، لتحملني بالتالي على التفكير في كتاب حول المغامرة السياسية الخطيرة وإعداد العدة لذلك. وإنعكست الهزيمة العسكرية التي حلت بنظام بغداد، على كردستان العراق بالشكل الذي بدا للعالم بكل ملابساته وخياراته وقد أشغلني الكتاب الذي ألفته في حينه عن التفكير فيما عداه.

وكنت قد نوّهت في صدر حديثي للقاريء بالغرض الذي حملني على إنتهاز فرصة بوادِر الإنهيار في بيان آذار ١٩٧٠ لأتقدم للرأي العام العربي والكردى بوثيقة هامة في تاريخ الكرد السياسي إصطلحت الأغراض السياسية والتعصّب القومي على إبقائها

بعيداً عن المتناول الشعبي. إذ لم يكن ينتظر هذا من حكومات وأقلام دأبت على إنكار فضل الكرد العراقيين في بناء الدولة العراقية الحديثة. وإن بيان آذار ١٩٧٠ لم يكن في الواقع إلا صدى بعيداً للآراء التي توصلت إليها تلك اللجنة الدولية بخصوص مستقبل جنوب كردستان السياسي في الدولة الحديثة التي أقامها البريطانيون وضرورة كتمان الدور الكردي التاريخي في تشكيل تلك الدولة، كانت تشتدّ بالانتفاضات المسلحة المتعاقبة وهي بجوهرها المطالبة بتحقيق المقترحات التي تبنتها اللجنة الدولية وقدمتها الى عصابة الأمم.

بعد العام ١٩٩١ وعلى ضوء السيطرة الكردية الحقيقية على الجزء الأكبر من جنوب كردستان إدارياً، صرت أفكر جدياً في نشر محتويات المخطوطة. ورأيت أن المقدمة التي كتبتها للتقرير ليست مناسبة ولا تفي بالمرام وإن من الضروري أن تتقدمه دراسة تاريخية مفصلة، وهكذا ولدت فكرة هذا الكتاب. ليغدو التقرير فرعاً والكتاب أصلاً. وكان الأمر يختلف عن الوضع في العام ١٩٧٣ حيث كنت أقتقر الى المراجع والمضام اللازمة لمشروع كهذا. والآن وخلال تسع سنوات من البحث الجاد بين المراجع والمصادر والوثائق أراني جمعت كل ما أصيبو اليه من العدة الى جانب تمتعي بكل الحرية التي يتمناها الكاتب لنشر آراء مستجدة.

ثم وجدت من المناسب أن ألحق بالكتاب كل ما يمكنني الوقوف عليه من مذكرات الأشخاص المشاركين في تلك اللجنة أو من ساهم في نشاطها موقعياً. وإهتديت الى أربعة. أولها لنائب رئيس مجلس العصابة الذي شارك في تأليف اللجنة السرف. ب والترز. ثم كان هناك الفصلان اللذان كتبهما الميجر إدموندز في كتابه (كرد وترك وعرب) الذي نشره في العام ١٩٥٧ وقمتُ بترجمته ونشره في العام ١٩٧٠ وقد عمل في اللجنة بوظيفة ضابط إرباط عن الطرف البريطاني. كان هناك أيضاً ما جاء عنها في ذكريات السيد عبدالعزيز القصاب متصرف (محافظ) الموصل في حينه. وقد تعذّر عليّ الحصول على كتابه. فأعجذني به الصديق الباحث المعروف الأستاذ (نجدت فتحي صفوت) نزيل لندن حالياً. ثم إهتديت الى مذكرات السيد آف. دي فيرسن السويدي الذي خصص لها جزءاً كبيراً من كتابه المطبوع في السويد (العام ١٩٤٢). وهو حافل بالصور التاريخية النادرة التي إلقتها بالمناسبة. أسعفني بترجمته الأديب والشاعر

"مؤيد طيب" وله مني الشكر.

إستوقفتني عبارة إستطراذية وردت في مذكرات (فيرسن) تشير الى أنه قرأ مادونه العضو الثاني في اللجنة وهو البلجيكي العقيد (پاولس) وكانت عبارة غامضة لاتمكنك من القطع برأي حول ما إذا كانت مذكرات پاولس مطبوعة أم أن فيرسن إستعارها منه وهي مخطوطة. ولم يمنعني هذا الغموض من البحث الدؤوب عنها. وقادني البحث الى المكتبة الوطنية في باريس، ثم الى مكتبة ستراسبورغ العامة الشهيرة. وأخيراً لجأت الى مكتبات الدولة الرسمية في بروكسل. فلم أجد أثراً للمذكرات المعزوة للعقيد پاولس. وبعدها فكرت في أن تكون مجرد مخطوطة مودعة في دائرة وثائق عصابة الأمم في جنيف وإمتد بحشي الى هناك دون جدوى. وبدا لي أن أقنع نفسي بأن مذكرات العقيد پاولس لم تطبع وأوقفت البحث.

وإنتظرتني بل قل إنتظرت هذا التقرير مفاجأة صغيرة أخرى. كان ذلك بعد أن بسط الحلفاء في حرب الكويت حمايتهم على كردستان العراقية من غائلة طيران حكومة بغداد الهجومي. ومن عاداتي أن لأكتم ما أنا في سبيل تأليفه سرّاً لأخرج به الى القراء كما يُخرج الحاوي أرنياً من قبعته. ثم إن مقتضيات تعقيب وتأمين المراجع والوثائق التي أحْتَاجها كانت ترغمني على الإفضاء بالأمر الى أوسع دائرة من الأصدقاء المتعاونين. لذلك لم يدركني عجب حين تلقيت ذات يوم مكالمة تلفونية من مدينة (جنيف). وقدم المتكلم نفسه اليّ بأسم (كيللر) قائلاً إنه حصل على عنواني ورقم تلفوني من معارف في لندن يعملون للقضية الكردية في العراق وإنه مكلف بالعمل مع فريق منهم وقد علم بقرب إصداري كتاباً عن النزاع حول ولاية الموصل وهو والفريق الذي يعمل لهم كخبير ومروّج (لوبي) يرغبون في التعاون معي.

كنتُ على بعض علمٍ بأن فئات من الرؤساء القبائليين الكرد الذين كانوا إنحازوا الى جانب الحكومة في مواجهة قوات الأنصار (الپشمرگه) وشكلوا ماعرف في حينه "بالأفواج الخفيفة" وجدوا أنفسهم بعد أن لحقت الهزيمة بالجيش العراقي وفقدوا وسيلة إرتزاقهم أن يدخلوا المعتزك السياسي في كردستان كواحد من مراكز القوى هناك بقيامهم بتأليف عصابة أطلقت على نفسها إسم "حزب المحافظين" وهو بزعامة زعيم قبائلي يدعى (عمر سورجي) وأن هؤلاء صاروا يطوفون في العواصم الأوربية بقصد

إستجداء نوع من شرعية التعامل معهم كقوة سياسية الى جانب أو على غرار تعامل الحزبين اللذين سيطرا على كردستان بعد إنحلال السلطة المركزية، وباعتبارهم القوة الثالثة في الميدان. ودُكرَ لي أيضاً أنهم كانوا يستخدمون لهذا الغرض بعض الأجانب المختصين لترويج دعواهم.

ورجحتُ أن يكون (كيللر) هذا أحد هؤلاء، وصدّقَ حدسي.

وأذكر أنني قلت له: لأدري ماذا تقصد بولاية الموصل ولاينوع التعاون الذي ترجوه مني. كما أنك لا تدري ما أهداف اليه من تأليفي. لكنني أريد إيضاح هذه النقطة. إن تعبير "ولاية الموصل" وهو مصطلح إداري عثماني بحث لم يعد له مكان في التداول السياسي الحديث. ونحن نستخدم الآن تعبير "جنوب كردستان" أو "كردستان العراقية" وإنّ ما أقوم به هو دراسة تاريخية سياسية بحثة لعلّاقه لها بما يحصل الآن في كردستان وباعتبارها جزءاً مهماً من تاريخ العراق الحديث، وكل شيء عداه يخرج عن دائرة إهتمامي.

هذا ماقلته له في حينه لكنه عاد يتّصل بي ثانيةً وبعث بالبريد بأوراق ومذكرات ونصوص موجهة إلى عددٍ من الدوائر والمقامات السياسية في أوروبا وأمريكا، من إنشائه وبعضها بتوقيع (عمر السورجي) وآخرين، وبعضها بعنوان حزب المحافظين في كردستان فأهملت الردّ. ولم يُعدّ إتصاله بي.

بعد فترة وجيزة. أبلغني صديق كنت قد كلفته بإستنساخ بعض الوثائق من مركز عصابة الأمم بهذه الحكاية. قال:

«في أحد ابهاء بناية العصابة لفتَ نظري زمرة من الأكراد بزيهم الوطني في إحدى القاعات، فجلست بينهم وكان المتكلم شخصاً أوروبياً وهو يتحدث عن أمور تخصّ كردستان العراق. تقربَ مني أحدهم وسألني عن هويتي فقلت اني عراقي من كردستان ومقيم في السويد. فأقترح عليّ أن أقابلهم في فندقٍ نزلوه ليبحثوا معي في إقتراح هام. فدفعني الفضول وحب الإستطلاع الى مقابلتهم في الموعد المضروب ووجدت خمسة منهم. قالوا لي انهم أصحاب قضية مهمة جداً إلاّ أنهم واقعون الآن ضحية شخصٍ جشعٍ محتال وهو الشخص الذي كان يتحدث في الإجتماع وإسمه (كيللر) «وهو يبتزنا ونحن نريد التخلص منه، فهل لك أن تتولى عنه قضيتنا وأنت ابن بلدنا.»

قال صاحبي: أخذتني الدهشة العظيمة. ونازعني العجب بين درجة حمق هؤلاء المغفلين وبين سذاجتهم في وضع ثقتهم بشخص مثلي لاسابق معرفة لهم به ولا هو بهم. وأسرعت لأبين لهم أنني لست مقيماً هنا وأن محل سكناي السويد. فلم يثنهم ذلك عن طلبهم وتعهدوا بالإنفاق عليّ وإجراء مكافأة مالية لي كبيرة فاعتذرتُ وأسرعت بترك هذه الحفنة من الجهلة دون أن أهتم بمعرفة أهدافهم وماذا يريدون تحقيقه^(٢). هذا ما رواه لي السيد [د. أ. ز] بالضبط.

وبعد فترة من الزمن قرأت في إحدى الصحف السويسرية إعلاناً صادراً عن مكتب محفوظات عصبة الأمم ومقیمیة هیئة الأمم المتحدة في جنيف تشير فيه الى أن المدعو (كيللر) هذا قد مُنِع من دخول هاتين المؤسستين نافياً كل علاقة لهاتين المؤسستين به بأي وجه من الوجوه. ويظهر أن "حزب المحافظين" هذا نفدت أمواله أو لربما عجز أصحابه عن تأمين (لوبي) جديد يرسم لهم أهدافاً أكثر جدوى وواقعية من "ولاية الموصل". ففارقوا وغابت آثارهم.

وبخصوص النقص والتمام. لأراني قادراً وبأي درجة من الثقة على الإدعاء بالإحاطة والشمول فيما أضعه الآن بيد القراء. وهو بالأصل كما قلت لم يكن تاريخاً سياسياً وإنما مجرد ترجمة لتقرير هام جداً أهملته الحكومات العراقية عمداً وأغفله المؤرخون عمداً أو تقاعساً. والفترة التي عالجتها كما بيّنتُ هي فترة «الحداثة» من حياة الوعي القومي الكردي حددتها بربع قرن للتبسيط ليس إلاً وليكون لكتابي إطار واضح لصورة ذات معالم بيّنة. فترة "الحداثة" هذه يشاء مسرى التاريخ العام أن تمرّ بأربع مراحل مؤثرة فاعلة. هي الثورة الدستورية في إيران ١٩٠٧. والإنقلاب العثماني والعودة الى الدستور ١٩٠٨. والحرب العظمى ١٩١٤-١٩١٨. وفترة قيام التغيير في خريطة العالم ١٩١٩-١٩٢٥ بولادة عصبة الأمم أول هيئة دولية.

ولكل مرحلة من هذه المراحل الأربع أثرها الكبير في تطوير وتنامي الوعي القومي الكردي أو في ظهور "القضية الكردية" مشكلةً من المشاكل القومية في العالم. وأغفلت عامداً الإشارة في الحاشية الى عدد كبير من المراجع التي اعتمدتها.

٢- سألت صديقنا الأستاذ محسن دزّبي عما إذا كان يعرف شيئاً عن أهداف هذه المجموعة. فأفادني أن رغبته في إثبات أنفسهم كقوة سياسية ثالثة في الميدان كانت تدفعهم الى مراجعة تركيا ثم سورية لمساعدتهم (كذا!) في ضمّ ولاية الموصل الى أحدهما. فلم يجدوا منهما أي تجاوب طبعاً.

مقتصراً على تلك التي قد تشير في القاريء الكثير الشكوك أو المنقّب المرتاب والدؤوب والمعقّب الزلاّت والسقطات، للتأكد مما هو حقيقة أو ما هو من وحي خيال. فالأصل الثقة. ولا أجد من بين قرائي من سيتجشم عناء السفر الى دار الوثائق البريطانية بلندن مثلاً أو صرف الوقت الثمين وإنفاق المال الجزيل بحثاً عن صحة مصادري بقصد تخطئتي أو إظهار زيف لي في عرض الوقائع. وإني لأنصح أولئك الذين يساورهم الشك في إستشهاداتي بدلاً من تكبد عناء التثبت من صحة مراجعي، أن يلقوا بكتابي هذا من النافذة. وأمّا عن آرائي التي ضمنيتها الكتاب وهي مما يمكن وصفه بالتحدي والجرأة على قلتها فلي من سعة صدر القاريء الثقة والأمل في تقويمها وموازنتها بعيداً عن العاطفة وعن ماجرى منها مجرى مسلمات لا تقبل طعناً. ثمّ إني لأدعيّ قطّ بالعصمة ولا بأني وضعت بين يدي القاريء بحثاً شاملاً جامعاً مانعاً. فكل ما أرجوه له من القراء هو أن يعدوه مجرد محاولة أوليّة لدراسة هذه الحقبة الغامضة من تاريخ الكرد وكردستان أو تمهيداً لدراسة أوسع بكثير.

جرجيس فتح الله

صلاح الدين ٢٠٠٢/١/١

البيوت الموهنة الناسخ

الفصل الأول

كرد فارس - المشروطه - (الدستور الفارسي) والمشروعه. تأثير طبقة التجار. الخلاف الديني - الدستوري. إنعكاسات المشروطه: في كردستان الفارسية. في الجنوب البختياري. الحركة الدستورية في مدن الجنوب. داود خان. الأنجمن. كردستان الفارسية الشمالية والأطماع العثمانية. حروب ١٩٠٥-١٩٠٧. الأنجمن في المدن الشمالية. الإنتماءات العشائرية. التدخل الروسي البريطاني. مشاكل الحدود. آثار الإنقلاب الدستوري في حركة التوعية القومية. حركة سالار الدولة المسلحة في كردستان الفارسية.

كاد كل إهتمام كتابنا ومؤرخينا أثناء متابعتهم لحركة الوعي القومي الكردي وتطوره يقتصر على الجزء من كردستان الذي خضع للحكم العثماني؛ وقلماً حظي ذلك الجزء الآخر الذي خضع لحكم الدول الفارسية بالتفاتة مقصودة أو عابرة.

ولهذا سببه الذي يمنعني عن إتهامهم بالعجز والتقصير بل يحملني على الاعتذار لهم. فما من شك في أن نمو وتطور الوعي القومي الكردي بالمفهوم الحديث؛ مولده بالأحرى، وقيام دعائه وناشري رسالته والمجاهدين في سبيله كاد يكون خلال الفترة التي رسمت لهذا الكتاب مقصوراً على كردستان العثمانية. والتاريخ لا يذكر مفكراً أو قومياً كردياً داعية أو جماعة أو كتلة حملت رسالة الفكر القومي في بلاد فارس بأي درجة تلفت نظر الكاتب وتحرضه على المتابعة.

وبإستثناء التعبئة العشائرية التي فحج الشيخ عبيدالله النهري في تنظيمها وقيادتها ضد السلطة الفارسية في العام ١٨٨٢. ليس بوسع الكاتب أن يسجل لكرد فارس أي تحرك قومي أو إستقلالي. وقد مضى حوالى نصف قرن على تقويض حكم الأردلانيين الكرد شبه المستقل. وبعد هاتين كان على كرد فارس أن ينتظروا لتلسعهم الحرب

العظمى الأولى (١٩١٤-١٩١٨) بشواظ من نارها اللاهب. وقد باتت كُردستان فارس ساحة كُر وفرّ للجيش الروسي والتركية والبريطانية أثناءها مع أنّ الدولة الفارسية لم تكن طرفاً في تلك الحرب.

ونظراً الى الفوضى الإجتماعيّة التي كان كُرد فارس يعانونها، لم يخلف الإنقلاب الدستوري الفارسي في ١٩٠٦ أثراً يُذكر في المجتمع الكردي هناك، خلافاً لما تركه الإنقلاب الدستوري العثماني بعده بعامين إثنين (١٩٠٨) من تحوّل خطير الى التطلعات القومية الكرديّة.

خلفنا القرن التاسع عشر وراءنا من غير أن نحسّ أثراً باقياً لثورة الشيخ عبيدالله النهري. وبقي المؤرخون كذلك في حيرة من الأمر. أكان يرمي هذا الثائر حقاً الى تحرير الكُرد وإقامة دولة لهم؟ أكانت مغامرته الفارسيّة مقدّمة لعملية تحرير واسعة تشمل أرض الكُرد وكلّ الكُرد؟

أرى من العبث محاولة إجابة مقنعة لأسئلتني يمكن إنزالها منزلة المسلّمات التاريخية. سيّما وأن الوضع الذي سبق الثورة، والآثار التي تخلّفت عنها، لم يكن فيها مايشير الى إرتقاء المشاعر الوطنيّة في جزئيّ كردستان - الى درجة الطموح والعمل من أجل التحرر والإستقلال. أجل، في العام ١٨٨٦ كان ثمّ فترة قصيرة لحركة نجحت في إقامة حكم ذاتي في صاوبلاغ (مهباد) قادها والي موكري إلاّ أنّه توفي في حادث عرضي فتهافتت حركته وماتت بموته. ثم وفي حدود العام ١٩٠٠ قام الشيخ قاضي فتاح رئيس ملالي المدينة نفسها بحركة ساندها عددٌ قليل من زعماء العشائر الناقمين وأبرزهم اغوات (المنگور). وقد عزّيت مساندتهم هذه الى ثارات بينهم وبين رؤساء مامش، الذين ساندوا الحكومة في قمع الحركة^(١). وليُعلم بالمناسبة أنّ أعلى ماكانت تلك المشاعر الكرديّة تسمو إليه في الجزء العثمانيّ هو الإصلاح والتجديد وإنتشال كُردستان من ظلام القرون الوسطى لكن ضمن الإطار العثمانيّ أي الجامعة العثمانية.

إلاّ أن الثورة الدستوريّة الفارسية في العام ١٩٠٦ تلك التي عرفت بـ(المشروطه) لم

١- أُعطي (قاضي فتاح) الأمان بعد فشل حركته - للشخص الى تبريز وعرض مطالبه ومن أبرزها تجميد زيادة الضرائب. وتعيين والٍ لصاوبلاغ من أهل الإقليم. فرُفض عرضه وألقي القبض عليه في تبريز وأرسل مخفوراً الى طهران.

يكن لها أي تأثير في التوعية القومية على كردستان الفارسية وكُردها القبليين الذين كانت مزقتهم الحروب الداخلية والغارات المتقابلة والتآمر الدموي على الزعامة وما يصاحبه من قتل وفظائع.

مع إلتماسي العذر لمن سبقني من الكتّاب الذين أغفلوا الخوض في مصائر وأحوال كُرد بلاد فارس. إلا أنني اعتزمت ولوج هذه المفازة رغم فقر مصادرها وقلة إسهامها في حركة الوعي القومي العامة، بله إضطرابي الى عرض تاريخي لجانب هام من تاريخ إيران الحديث (البلاد التي كانت تسمى بفارس وقتذاك) تبعاً لذلك، وقد وجدتُ صلته وثيقة بما أنا في سبيله.

إن تأثير الإنقلاب العثماني في العام ١٩٠٨ على نمو حركة الوعي القومي الكردي في القسم العثماني كان من الواضح بدرجة كبيرة عجز عن إنكاره أو التقليل من شأنه أشدّ الأعلام كرهاً بالحكم العثماني وسيكون هذا أيضاً عرضةً لاستقصائي في الفصول القادمة. وفي حين لا أجد للإنقلاب الدستوري الفارسي (المشروطة)، أثراً يذكر على اليقظة القومية الكردية هناك. إلا أن دراسة مراحل هذا الإنقلاب وإنعكاسها على كردستان الفارسية ستعيننا حتماً على تفهّم أسباب تأخر الوعي والشعور بالهوية القومية في هذا الجزء من كردستان وهي مرحلة لا بدّ من دراستها في نظري.

والفرق بين الإنقلابين واضح. فالإنقلاب العثماني ١٩٠٨-١٩٠٩ الذي أطاح السلطان عبد الحميد بالنهاية، وأعاد العمل بالدستور. قامت به وهيات له جمعية سرية أعضاؤها مدنيون وعسكريون. ونفذه الجيش العثماني بضباطه. في حين أن الإنقلاب الفارسي أشعلت فتيلته طبقة التجار أو (البازار= السوق) بقيادة وتوجيه علماء الشيعة وروحانييهم أصلاً.

قالوا: الثورة الدستورية (المشروطة) كان سببها الرئيس التغلغل السياسي والإقتصادي الغربي. وفشل آل قاجار الأسرة الحاكمة وأمرأء البيت المالك القاجاري^(٢) أنفسهم وقوأك الجيش المكلفين بجباية الضرائب بالقوة والإعتساف الى حدّ القتل والتعذيب أو ضرب الحصار على المدينة أو القرية المتمردة وضربها بالمدافع.

٢- هذه السلالة حكمت بلاد فارس بستّة ملوك أولهم مؤسسها في العام ١٧٩٥ محمد خان قاجار. وآخرهم أحمد شاه الذي خلع في ١٩٢٥. ليخلفه رضا بهلوي.

وطبقة التجار (البازار) هي طبقة هامة جداً في الحياة الإقتصادية الإيرانية وكانت بهم بداية الثورة الدستورية اذ قرروا بعد المشاورة مع رجال الدين أن يغلقوا دكاكينهم الى أجل غير مسمى ليصيبوا الحياة الإقتصادية بالشلل التام في طهران. هؤلاء هم دائماً على صلة روحية ومعاشية بطبقة رجال الدين. والأخرون هم على تجارب وتناغم تام مع الأولين فإن جأر البازار بالشكوى من إعتداء حكومي، قام الروحانيون إرضاءً لهم بأصدار الفتاوى لإثارة العامة. نقول سرت عدوى الثورة في طهران لتغدو عصياناً مدنياً عاماً. وأرتفعت الأصوات مطالبة بالدستور وانتقلت الدعوة الى سائر المدن الإيرانية. وإنقسم الجمهور الى مؤيدٍ للدستوريين والى مؤيدٍ للملكيين بإنقسام حادٍ في وجهات نظر المراجع الدينية^(٣). وإنتهى الأمر الى إصدار (فرمان) شاهنشاهي بإجراء

٣- لم يتم الأمر بمثل هذه السهولة. ففي المجلس إنقسم العلماء الى فئتين فئة تدعم الدستوريين والدستور ونظرية الحكم الدستوري، وفريق ضد الحكم الدستوري (الملكيين) وكان يقوم على رأس هذه الفئة الشيخ فضل الله نوري. فبعد اسهامه الكبير في مراحل الإنقلاب الأولى عاد لينقل ثقل سلطته الى الفريق المناهض للدستور مدعياً أن الغرض الأصلي من الحركة هو قيام مجلس يسن قوانين تتفق وأصول الشريعة الإسلامية فحسب وأن المجلس الحالي لم يقم بهذه المهمة «لوجود أعضاء من طوائف جديدة غريبة» ومع قبول معظم المجتهدين والعلماء بالتعديلات التي أجرتها هذه الفئة على مسودة القانون الأساسي وموافقتها على جميع القوانين المقترحة. إلا أن الشيخ فضل الله وانصاره إنسحبوا محتجين على اعمال المجلس. ولجأ الشيخ فضل الله الى مقام (شاه عبدالعظيم) في تموز ١٩٠٧ احتجاجاً ودليلاً على عدم رضاه. وراح وهو آمن يصدر بيانات من ملجئه مندداً بأعمال الدستوريين. ثم طور احتجاجه على (الدستورية) بشجبها جملةً وتفصيلاً بإعتبارها مستوردة من أوروبا، وبأنها لا تأتلف مع الإسلام فهي والحالة هذه (بدعة). ودعا بدلاً من (الدستورية) الى ماسماه (مشروطه ي مشروع) قاصداً بها حكومة دستورية مبنية على الشريعة أو على الأقل موافقة لها. [نقول: نشر هذا البيان مجدداً السيد محمد تركمان بعد نجاح الثورة الإسلامية ضد الشاه ١٩٧٩. بعنوان «رسائل اعلاميه، مكاتبات ورزناميبي شيخ شهيد فضل الله نوري - ط. طهران ١٩٨٥]. ثم إختصر شعار الشيخ (مشروطه ي مشروع) بـ(مشروطه) فيما بعد. وإنقسم المجتهدون والعلماء بعدها الى فئتين عرفت إحداهما بـ(مشروطه) والأخرى بـ(مشروطه). وانعكس الخلاف المبدئي هذا في النجف. وبرز كل من آية الله (البهبهاني) وآية الله (الطباطبائي) وأشياعهما منحازين الى جانب الدستوريين (المشروطة) في حين كان للشيخ (فضل الله نوري) أشياعه هناك. وبقي آية الله العظمى السيد محمد كاظم اليزدي (ت ١٩١٩) وهو المرجع الشيعي الأعلى حيناً على الحياد ثم راح بالأخير يميل الى معارضة (المشروطة) وسانده في ذلك الشيعة العرب والحكومة العثمانية حتى اعلان الإنقلاب العثماني.=

انتخابات عامة لجمعية تأسيسية بالأحرى تتولى وضع دستور للبلاد اي مجلس نيابي بالأحرى تم إفتتاحه في الأول من كانون الأول ١٩٠٦. وألفت فوراً لجنة لصياغة الدستور فكان ذلك ووافق عليه الشاه مظفرالدين في كانون الثاني ١٩٠٧. ثم توفي بعد قليل.

إنعكست هذه الخلافات والبلبلية الفكرية على سائر مدن فارس. ولم يكن للكرد وفي المجلس أو الانقلاب حضور قومي أو أقليمي ولا مشاركة في المشاحنات العقائدية. والأمر لا يدعو الى الإستغراب نظراً الى طبيعة الانقلاب ومآتاه. على أننارى من

= إن أفضل وأوضح ردّ على الشيخ فضل الله نوري. كان بقلم مجتهد نجفي كبير هو آية الله (ميرزا محمد حسين النائيني (ت ١٩٣٦). واحد ممن تلقى العلم على يد المصلح والمجدد الكبير (الأخند خراساني). ففي كتابه "تنبيه الأمة وتنزيه الملة" قذّف بتهمة البدعة بوجه فضل الله نوري وحزبه. قائلاً إن رفض الدستورية يؤدي (بنوري) وشيعته لامحالة الى مساندة الطغيان والإستبداد وهي بدعة بحد ذاتها. ولم ينف بأن (الدستورية) هي ظاهرة مستحدثة إلا أنه رآها واسطة للحدّ من طبيعة حب الإستثثار بالحكم أثناء غيبة الإمام المنتظر. وقد وضع حجته هذه بشكل حلم تراءى له فيه الامام المنتظر وخاطبه من خلاله.

الأمر الذي يستوقف النظر هنا هو أن كلا الفئتين من العلماء المختلفين تستند في نزاعها الى عين الأسباب وتفقان على أرض واحدة. فهما تتفقان على ان المجلس النيابي (الإشتراعي) يجب ألا يخرج عن إطار (العرفيات) أي الأمور التي أقرتها الشريعة. كذلك تتفقان على أن حرية التعبير يجب أن لا تتعدى الى الحدود التي لا يقرها الإسلام. وأن المساواة يجب أن لا تكون مطلقة كالمساواة التامة بين المسلم وغير المسلم. وبين المرأة والرجل. إلا أن نقاط اللقاء هذه (وغيرها كثير) - قضي عليها بزخم الهياج العاطفي في حينه وبإستناد كل طرف الى حلفاء تكتيكيين. هناك العلماء الدستوريون والمدنيون الليبراليون في المجلس طرفاً. وهناك العلماء والمجتهدون الرجعيون مع جماعة البلاط طرفاً آخر. وهناك فريق آخر من العلماء إنصبّ إهتمامه على وحدة ايران الإسلامية. يخالفون الآخرين أساساً في تقديرهم للدستورية كوسيلة لهذه الغاية. وقد بدا ذلك واضحاً بالهجوم الروسي في ١٩١١ فقد دفن العلماء خلافتهم وهبوا جميعاً للدفاع عن أرض الإسلام بوجه الغزاة. بل قبل هذا، فقد خسر الدستوريون كثيراً من سمعتهم عندما قامت القوى الثورية في العام ١٩٠٩ بإعدام الشيخ فضل الله نوري. وكذلك بإغتيال السيد عبدالله البهبهاني في ١٩١٠ بيد طائفة من المتطرفين الذين يظاهرون جناحاً في المجلس ويسبب من ذلك على ما قيل - إن الأخند خراساني سحب كلّ تأييد له للمجلس في حين قذف آية الله النائيني بكل ماتبقى من نسخ من كتابه المار ذكره في مياه دجلة. إلا أن كتابه هذا لم ينس ففي العام ١٩٥٥ قام آية الله الطالقاني الشهير أحد أقطاب الثورة الإسلامية بإعادة طبعه وقدم له بكلمة تشهد بصحة آرائه.

الأهمية بمكان أن نعرض لقارئنا وصفاً مختصراً لآثار هذه الأحداث في كردستان مع خلفياتها. ولأخذ بالأول نموذجاً مدينة كرمنشاه وهي أكبر المدن الكردية في الجنوب. وإقليمها أو بالأحرى حاكميتها تقطنها قبائل كردية خالصة. وللتبسيط سأدعوها بجنوب كردستان الفارسية.

قلنا فيما سبق أن من أسباب الثورة هو محاولات القاجاريين وموظفيهم جباية الضرائب بالقسوة والعسف ومن ضمنها الضرائب عن المحاصيل الزراعية والحيوانية وأن الخيبة العامة من حكم آل قاجار نجحت في خلق الإئتلاف المعارض من العلماء والمثقفين مع التجار في طهران العاصمة وغيرها من حواضر الأقاليم الكبرى، كتبريز وكرمنشاه وغيرهما، أمثال هذه الائتلافات حظيت في أحوال معينة بمساندة ملاك الأراضي الزراعية ورؤساء العشائر. ومن بين هؤلاء شريحة من عشائر البختياري والُر الذين شعروا بالريح القارصة للضرائب القاجارية تلفح وجوههم فألقوا بثقلهم على الحركة الدستورية الجديدة لانتيجة فهم إدراك لمقاصدها أو مراميها بل لأنها قد تفتح لهم باباً للخلاص من وطأة اليد القاجارية.

كان الوضع مواتياً للدستوريين للعمل بحرية في تحديد سلطة الشاه دون أن يخشوا تدخلاً روسياً لحمايته أو لصالحه بعد الهزيمة الساحقة التي أنزلتها اليابان بروسيا في حرب العام ١٩٠٥ وماتلاها من ثورة داخلية في موسكو.

اذن سيطرت المعارضة على العاصمة. وأرغمت الشاه على إستحداث مجلس شورى وصياغة دستور. وعلى إثر ذلك هب التجار وأرباب الصناعة والحرفيون في المدن الكبرى لمساندة الدستوريين. وفي كردستان بادرت كرمنشاه ومدن أصغر مثل أورميه وصابلاغ (مهاباد) وبعض القصبات أيضاً أمثال سنه وساقز الى تشكيل لجان (النجمن) شعبية بمواجهة الحكام المحليين. مثلما حصل في سائر بلاد فارس وإختلف الأمر عند رؤساء القبائل الكردية في انهم بصورة عامة كانوا الى جانب الملكية بوصفها حامية النظام الإقطاعي وهم جزء منه. وقف هؤلاء من المبدأ موقف عداء من الدستور والإصلاح الدستوري. إلا أنهم كانوا يحققون بنوع خاص على آل قاجار وموظفيهم ونوابهم ويناصبون هؤلاء العداء السافر عندما لا يقوون على التفاهم معهم أو اصطناعهم. كانوا يراقبون بحذر وشك عظيمين كل زيادة أو محاولة مداخله الطبقة الحاكمة في شؤونهم

القبائلية ويكرهون من هؤلاء الحكام طمعهم وشرائهم في جباية الضرائب. وبسبب التضييق في الجباية كثيراً ما يعلن هذا الرئيس العشائري أو ذاك عصياناً. فيؤول إلى الإضطدام والمواجهة المسلحة وبدخول جنود الحكومة قري ذلك الرئيس لتعمل فيها نهباً وسلباً وإعتقالاً وقتلاً. وكثيراً ما تتقوى الفصائل المسلحة العشائرية على الحاكم الضعيف القليل العدد والعدد فتتحتّم عليه حاضرة حكمه وتنشر الفوضى وتشيع الرعب في السكان وتنهب وتصادر وتنتقي رهائنهم بين الموظفين ووجهاء البلد وكثيراً ما يكون حاكم المدينة نفسه بينهم، ثم تخرج من المدينة بغنائمها وأسراها آمنة من تعقيب جنود الحكومة.

وكثيراً ما تعقد هذه القبائل حلفاً هجوماً عندما يضيق صدرها بحاكم عقد العزم على الحدّ من سلطانها أو حاول التدخل في شؤونها القبائلية بعزل هذا الرئيس ونصب غيره. بكلمة مختصرة كان زعماء القبائل يفضلون حكماً ذاتياً محلياً ولا يعملون كطبقة ذات مصالح مشتركة. وكلّ وراء مصالحه الخاصة المحددة. على أنهم كانوا ينقسمون على نشاط أهل المدن السياسي. كذلك وقفوا موقف عدااء صريح عندما وجدوا الأهالي في صاوبلاغ وأورميه وسقز وسنه وكرمنشاه وخوي وسلماس وعدد من القرى الكردية الكبيرة يميلون إلى الحركة الدستورية أو بعبارة أخرى إلى رغبتهم في التخلص من حكومة ظالمة فاسدة يمثلها الولاة والحكام بدعم من الإقطاعيين ورؤساء العشائر ولذلك لم يكن مستغرباً أن يقف زعماء القبائل الكردية وأغواتها موقفاً معادياً من تلك اللجان (انجمن) بل كان بعضهم يرغب في تصفيتهم شخصياً فمثلاً « أقدم اسماعيل آغا (سمكو) رئيس العبدوي وهي فرع من قبيلة الشكاك على بذل مساعدة غير محدودة لخان ماكو في القضاء على اللجان (أنجمن) هناك، فكافأه هذا الوالي بإسناد حاكمية (قتور) اليه. وساهم سمكو كذلك في تصفية لجان (خوي) و(سلماس) وانتقمت لجنة سلماس لنفسها بدفع فرع الشكاك المنافس للاغارة على قري سمكو آغا ونهبها وحرقتها^(٤). »

لم يكن واحد من هذه (الأنجمنات) يبطن شعوراً عنصرياً أو قومياً. بل كان جَل

٤- ديفيد مكداول الص ١٠١ و ١١١. نيويورك - ١٩٩٧ تاريخ حديث للکرد David McDowell: A Modern History of The Kurds

الرغبة المشاركة في الإدارة المحلية وتقليص صلاحيات الولاية والموظفين على أساس التمثيل الشعبي. كان الأهالي يرغبون في الخلاص من الولاية الفاسدين الطماعين الذين تفرضهم الحكومة عليهم فرضاً. كما كانت هناك رغبة للقرويين وأهل الريف في تعبئة قواهم ضد أصحاب الأراضي الزراعية ومعظمهم من رؤساء القبائل والشيوخ. والهدف المشترك لأهل المدن والريف هو التقليل من مكاسب الاقطاعيين إما من الاتاوات والسخر التي يفرضونها على قراهم وإما من فرض أسعار مرتفعة على محاصيلهم من المواد الغذائية التي يزودون بها الأسواق. فمثلاً عندما كانت واحدة من تلك الأنجمانات تحاول تخفيض أسعار اللحوم، يهرع هؤلاء الزعماء والإقطاعيون الى الوقوف ضدها باعتبارها خطراً مباشراً يهدد مراكزهم تهديداً مباشراً. وهكذا تجد مبعث الولاء في كردستان آنذاك يميل الى الاتجاه الاجتماعي - الإقتصادي ولايسير على الخط القومي^(٥).

الخلاصة لاتجد اشارة أو دليلاً يهديك الى وجود مشاعر قومية كردية. وآية ذلك انك لاتجد كاتباً أو شاعراً أو أديباً يستخدم لغة الكرد بأي مستوى وفي كل أرجاء كردستان الفارسية وحين لاتجد واحداً يحسن القراءة والكتابة بالكردية بين ألف من السكان.

* * * * * * * * *

بذل محمد علي الشاه الجديد بعد جلوسه في ١٩٠٧ جهوداً محمومة لالغاء الدستور وأخفق وإضطر بالأخير الى التنازل عن العرش ومغادرة البلاد، وعزيت هزيمته بالأصل إلى مقاومة محور الثوريين التبريزيين - وكونفيدرالية البختارية. إلا أن مجلس الشورى (المجلس النيابي) وجد نفسه وعلى إثر النزاع الحاد بين (المشروطه) و(المشروع) - وبعد إزاحة عقبة محمد علي شاه - وجد نفسه منقسماً على نفسه إنقساماً بين المتطرفين الذين يطمحون الى إصلاح اجتماعي، وبين المحافظين الذين يريدون المحافظة على ملكية دستورية وعلى مكانة الدين في البنية السياسية. وفشل الطرفان في الوصول الى نوع من التفاهم وأنعكس الخلاف على المدن الفارسية عموماً. الأمر الذي نجم عنه فوضى وإضطرابات واسعة النطاق في السلطة خارج العاصمة وفي

٥- في بعض الأحيان ويتشجع من دستوري طهران كانت هذه اللجان تفرض إرادتها فمثلاً تمكنت لجنة صاويلاغ من الإفراج عن الشيخ (قاضي فتاح) المعتقل في طهران منذ ١٩٠٠ (أنظر ماسبق) وعاد ليرأس (أنجمن) المدينة.

الأرياف. وحاول عددٌ من اتحادات القبائل الكرديّة الموالية للطرف المحافظ التغلب على الاتحاد البختياري والثوريين التبريزيين فأخفق وهُزم.

ووجدت القبائل التابعة لإقليم كرمنشاه والسكان حواليتها أن بوسعها إستخدام هذا الصراع السياسي لفائدتها.

مما يجب ذكره عن كرمنشاه وتوابعها هنا وقد استفردناها لكونها أكبر المدن الكرديّة ولأنّ إنعكاس آثار الحركة الدستورية بدا فيها أكثر بروزاً من غيرها. واقع كون الكرد هنا إمّا شيعة إثنا عشرية كالأغلبية الفارسية أو من طائفة أهل حق (على إلهيّة). ولم يكن هناك توترٌ أو جفاء كبير بين الشيعة وأهل الحق في جنوب كردستان كما كانت الحال في النزاع الطائفي في شمال كردستان. وفي ذلك الزمن قدر عدد سكان المدينة بخمسين ألفاً. وأهميتها كبيرة بوصفها آخر محطة رئيسة على طريق القوافل بين فارس وبلاد ما بين النهرين (العراق). وما يستورد الى فارس من الخارج يرد معظمه من بندر بوشير عبر دجلة الى بغداد لينتقل بعدها الى البلاد الفارسية عن طريق خانقين - قصر شيرين البلديتين الحدوديتين في الجانبين. على أنّ هناك صلةً أهمّ من هذه بكثير وأدعى الى الحساسية يُبوّ كرمنشاه منزلة خاصّة. ففي كلّ عام يمرّ من خلالها الى الأماكن الشيعيّة المقدسة: النجف وكربلاء ما قدر في حينه بـ (١٢٠٠٠) زائر، وما يقارب (٨٠٠٠) جثة لتدفن هناك. والقبائل الكرديّة المتاخمة للطريق تستوفي الإتاوة من هذين المصدرين وتقاوم محاولات الحكومة وضع حاميات على الطريق أو شرطة على الحدود أو توفير حماية للقوافل من الدرك كبديل لما زعمته القبائل من إحتكار مهمّة توفير الحماية المطلوبة لها، لقاء المبالغ التي تبتزها منهم والّا وقع هؤلاء الزوار ضحايا الغارات وعصابات قطاع الطرق، ولكل قبيلة تشكيلتها منهم.

وتتنافس القبائل على هذا وكثيراً ما ينشب قتال بينها. وفي أنحاء كرمنشاه كانت قبيلة الكلهور الشيعيّة والگوران أهلي حق بزعامة السادة الحيدريّة، (بإستثناء المنگور المنتشرة في أنحاء صاوبلاغ) أقوى قبيلتين بين كل إتحادات قبائل فارس الكرديّة.

والى الإتحاد الكونفدرالي الگوراني انضوت عشائر السنجابي والگردزي والزنگنه أصحاب الدور الكبير في حياة جنوب كردستان. وعلى مسافة من أقصى الجنوب كانت هناك إتحادات قبائل اللّر (وهم الكرد الفيلية) والبختياريّة. وبين آذربيجان ومنطقة

كرمنشاه تنتشر القبائل الكردية ومعظمها من أهل السنة. وتنظمها حاكمية أردلان (هي الآن ما يدعى بمقاطعة أو حاكمية كردستان) وسيأتي الحديث عنها.

ما حصل في مفتح القرن العشرين أن (داود خان) وهو من أصل وضيع كما ذكروا تمكن ببأس وطموح لا حد له من إغتصاب زعامة الكلهور في حدود ١٩٠١ مستخدماً القسوة والبطش المجردين من أي أثر للرحمة وتأنيب الضمير. نصب نفسه إيلخانا وعزل الإيلخان الشرعي وأرسله منفياً الى كرمينشاه. لكنه لم ينعم برئاسته هذه طويلاً إذ مالبث ابنه (جوان) أن شق عليه عصا الطاعة وأعلنها حرباً كانت له فيها الغلبة. وهزم داود خان وتشنت شمل اتباعه وهرب الى كرمينشاه. فزحف المنتصر على المدينة بشماتمة وثمانين مقاتلاً. إلا أن علماء الدين في المدينة تمكنوا في آخر لحظة من احلال صلح بين الأب والابن وعاد الكلهور من حيث أتوا. كما عاد داود خان الى زعامة القبيلة.

بقي داود خان بعد الصلح مصراً على عمل بداه أو كان عمله في نيته وهو إخضاع السنجابي الأهلي حق الى حكمه. هؤلاء كانوا من الموالين التقليديين للحكومة. وزعيمهم كان يقلد عادة حاكمية (قصر شيرين) وفي ذلك الحين كان زعيم القبيلة (شيرخان سنجابي) المعروف بـ (صمصام الممالك)، خصماً عنيداً لداود خان.

في العام ١٩٠٨. والنزاع محتدم في طهران بين الدستوريين وخصومهم. شاعت الحكومة أن تعين (ظهير الملك زنگنه) والياً لكرمينشاه. كان ظهير الملك رئيس عشيرته ومن ذوي العقارات والأراضي الزراعية المترامية نجح داودخان في عقد صفقة معه شددت من أواصرها زبجة (جوان) ابن داودخان بإبنة ظهير الملك. من آثار ذلك الحلف إستصدار فرمان همايوني بتعيين داودخان (رئيساً للعشائر) أي منحه رتبة الزعيم الأكبر لرؤساء عشائر الأقليم الكردية مقابل تعهده بتقديم عشرة آلاف مقاتل للشاه ضدّ الدستوريين. وبدأ داودخان أقوى الآن من أي وقت. وأدرك (شيرخان سنجابي) بأن خصمه هذا سينتهز أول فرصة ليوقع به وكان متعاطفاً مع الدستوريين آنذاك.

النزاع بين الملكيين والدستوريين أدى الى صدامات دموية في عدد من المدن الفارسية وشمل ذلك كرمينشاه.

كانت المدينة في ١٩٠٧ قد طردت الملكيين وانتخبت لنفسها والياً دستورياً. أما خارج المدينة فقد زال كل أثر للسلطة وخلف هذا الزوال أثرين. أولهما شعور زعماء

العشائر المجاورة بالحرية في الاتيان بأعمال لاقانونية. وثانيهما إستعدادهم للإلتواء تحت راية أي فريق يؤمن لهم أعظم المنافع.

وبمجيء العام ١٩٠٨ إستقطب الصراع على حيازة كرمنشاه ليؤدي الى سلسلة من المعارك بين الكلهور وبين قوات صغيرة للسنجابي داخل المدينة نفسها، أولاها تزيّت برداء الملكيين وثانيتها نسبت نفسها الى الدستوريين.

زحف داودخان بقواته على السنجابي من إتحاد الكوران. فأسرعوا قبل المواجهة يعلنون خضوعهم وإستعدادهم للإلتزام بأمره. ولم يُفَضَّ الأمر الى قتال معلوم النتيجة وقبلوا بزعامته فباشر يعزل من يشاء منهم وينصب من يشاء بوصفه (رئيس العشائر). ودخل كرمنشاه بألف من مسلّحيه بدعوة من (ظهير الملك) إسناداً لمركزه المزعزع في المدينة.

إلا أن (ظهير الملك) عزل بعد فترة لكثرة الشكاوى ضدّه وخلفه (نظام السلطنة) الذي حاول بالحيلة والسياسة خضد شوكة داودخان لكن محاولته باءت بالفشل. من ناحية أخرى رفضت حكومة الدستوريين في طهران تسديد المبالغ التي أنفقها (شيرخان سنجابي) من جيبه الخاص لتجنيد خمسمائة من الفرسان على حساب الدستوريين لقتال الكلهور فكانت ضربة شديدة الوقع على جيبه وكرامته وإنسحب نهائياً ليبقى الكلهور وحلفاؤهم من الباجلان سادة الطريق بين كرمنشاه وخانقين يجيبون الاتاوات من الزوار والقوافل. ثم إن داودخان نَصَبَ زعيماً عشائرياً باجلانياً يدعى (كريم خان) نائباً له في حكم قصر شيرين فكان كمن ختم بذلك على زعامته فقد أثار هذا التعيين حفيظة أفخاذ من الكوران لأن التعيين رافقه منح واردات قصر شيرين لكريم خان. فإتحدت مع السنجابي الذين تركوا داودخان وعادوا ليلتفوا حول (شيرخان) وعمّت الفوضى وسادت البلبلة. وإنقسمت العشائر الى فريقين. وحمل داودخان على قرى للسنجابي فدمر كل ماوجده منها في منطقة تبلغ مساحتها مائتي ميل مربع تدميراً كاملاً ونهب قرى أخرى. إلا أن الهزيمة حلّت به بالأخير. وبقي الموقف في جنوب كردستان الفارسية على هذه الحال من الفوضى والنزاعات حتى الحرب العالمية الأولى.

بدا الوضع في شمال كردستان الفارسية^(٦) لاسيما منطقة الحدود مختلفاً جداً عن

٦- يحدد بصورة تقريبية بالمناطق التي تسكنها العشائر الكردية السنية المذهب. وجغرافياً برسم =

جنوبها. فهنا كانت تبدو الاطماع العثمانية بضم هذا الجزء بشكل صراع وحرب سجال لا بين إيران وتركيا غالباً بل بين الروس والترك. حتى دخول بريطانيا طرفاً رابعاً. ولاأريد الأخذ بيد القاريء الى أبعد من ١٨٨٢. حيث تزايد قلق طهران من نوايا هاتين الدولتين في أملاكها. لاسيما عندما باتت مقتنعة بأن غزوة الشيخ عبيدالله النهري في ذلك العام^(٧) لهذا الجزء إنما حظي بموافقة الباب العالي بل السلطان العثماني بالذات. ثم وبعدها بست سنوات فقط (١٨٨٨) حشد العثمانيون في وان وباشقله القريبتين من الحدود جيشاً قوامه ستة آلاف جندي ليشيعوا الرهبة في طهران التي لم تكن تملك إذ ذاك جيشاً.

ويدت نيّة العثمانيين في إمتلاك هذا الجزء السني من فارس حقيقية حين تفسّر بإجرائاتها على الأرض وبواقع تعليلها. كما بدت تعويضاً لما فقدته تلك الإمبراطورية من أملاك في أوروبا.

وفي أواخر العام ١٨٩٠. وضح زيادة إهتمام الروس بهذا الجزء أيضاً وهي تعدّه جزءاً من أذربيجان. فبدأت بإرسال بعثات تبشير دينية بغية تحويل آشوري كردستان عن النسطورية الى الكنيسة الارثوذكسية الروسية بمقابلة البعثات والإرساليات الفرنسية والبريطانية والأمريكية. وشاع بعدها خوف ممائل في طهران بأن الروس عازمون على ضم منطقة أذربيجان شرق أورميه الى أملاكهم. فقابل العثمانيون ذلك بأعمال قصدوا بها تأكيد نفوذهم على المناطق الكردية ذات الأهمية الاستراتيجية قبل أن يصلها الروس... وبالخصوص الأراضي الواقعة على طول الحدود غير المعلّمة^(٨) حتى ذلك التاريخ إلا أنهم كانوا يخشون خلال السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر أن ينجرّ تدخلهم العسكري الى تدخل روسي. وفي ذلك الحين كانت طهران أضعف جداً من أن تحاول شيئاً أكثر من المذكرات والإحتجاجات الدبلوماسية لوقف الصراع المقبل على الأقاليم الحدودية.

= خط موهوم صاعد بين مدينة خانقين وسنه (سنندج) يمتد عبر الحدود.

٧- يراجع الباب الأول من كتابي: مبحثان على هامش ثورة الشيخ عبيدالله النهري. ط ثانية. أربيل ٢٠٠١.

٨- بقيت الحدود غير المثبتة موقعياً بعد معاهدة أرضروم الثانية في ١٨٤٧، حتى قيام الحرب العظمى الأولى وتوقف آخر لجنة من عدة لجان التخطيط عن العمل.

وعلى أية حالٍ شعر العثمانيون بأنهم قادرون في مفتتح القرن العشرين على مباشرة أعمالٍ عسكريةٍ منتهزين الآثار المدمرة التي خلفتها هزيمة الروس في الحرب اليابانية (١٩٠٤-١٩٠٥) والثورة والإضطرابات الداخلية التي تلتها الى جانب الفوضى السياسية الفارسية التي سبقت (المشروطية) وماتلاها من الإنقسام الفكري الحاد. وكانت الفوضى السياسية في هذه الفترة (١٩٠٥-١٩٠٧) قد سرت الى شمال كردستان كما سرت في جنوبها لاسيما في الحواضر وبدرجات محدودة ومتفاوتة فإنجاز الأغوات والشيوخ بدأ ذي بدءٍ الى الحكومة المتمثلة في الشاه، فيما التحقت مجموعات كردية من المدن والارياف بالفصائل الثورية التي عرفت بـ (فدائيان). ولاأريد إستباق الأحداث، بالتصدي الى دور هؤلاء في شمال كردستان الفارسية أثناء الثورة الدستورية الفارسية والمشروطة وما جرى بعدها، سيّما في محاولتي التي ستبدو للقاريء محاولةً عقيمة في ايراد تسلسل زمني دقيق للأحداث الدامية الناجمة عن الصراع على النفوذ بين العثمانيين والروس امام شلل الحكومة الفارسية التام ونظراً لإتساع رقعة الصراع وتداخله أحياناً وتزامنه أحياناً ومناوبته أحياناً وتربص الخصمين أحدهما بالآخر أحياناً.

أقول تراءى للسلطان عبدالحميد الطامع أبداً بضمّ كردستان الفارسية الى ملكه أن بوسعه إنتهاز فرصة الهزيمة العسكرية الروسية في ١٩٠٥. وانشغال روسيا بلحق جراح الثورة الداخلية التي فجمت عنها - أن بوسعه ضمّ الجزء الأكبر من كردستان المتاخمة للحدود حتى أورميه مستغلاً نزاعاً على الحدود حول عائدة الغمارك في لاهيجان والمراكز الأخرى المجاورة لها. فأصدر في شهر آب ١٩٠٥ أوامراً الى قبيلتي الحيدرآلي ودليان وغيرهما ممن جنّد في الآلايات الحميدية^(٩) بالنفير. كما أصدر الأوامر الى الجيش السادس بقيادة محمد فاضل پاشا الداغستاني الفريق الذي كان أيضاً والياً على الموصل بالوكالة الى جانب بضعة آلاف من المرتزقة فعبرت الحدود واحتلت دون مقاومة تذكر معظم إقليم صاوبلاغ، ثمّ إنشعبت القوة فتحرك قسمٌ منها نحو الشرق وتحرك القسم الآخر شمالاً. وقدرت المصادر الدبلوماسية القوات التي دخلت كردستان الفارسية بإثني عشر ألف بندقية نصفها من الخيالة. وقدرت المصادر الروسية عدد

٩- سيأتي الكلام عن الآلايات الحميدية بالتفصيل في الفصل الثاني من هذا الكتاب.

الأكراد المنضمين الى الجيش وبضمنهم الآلايات بحوالي خمسة وعشرين ألفاً وهي تقديرات روسية بالأصل بولغ فيها كثيراً. الى حين من الزمن أشغلت هذه القوة الأراضي المحتلة ثم انسحبت لضغوط دبلوماسية شديدة من روسيا وبريطانيا على الباب العالي إلا أن العشائر الكردية أشغلت فراغ السلطة الذي انسحبت عنه القوات العثمانية وعجزت طهران عن ملئه كما كان متوقعاً، واكتفت الحكومة العثمانية بولاء العشائر المسيطرة هناك، بل كثيراً ما كانت القبائل أشبه بالسhtar أو الدريئة التي تتخفى تحتها الأطماع العثمانية. وعلى سبيل المثال. في شباط ونيسان ١٩٠٦ دخل الشيخ محمد صادق ابن الشيخ عبيدالله النهري ترگور ومرگور وسهول دشت على رأس قوة عثمانية مختلطة (نظامية و«باش بوزق») مطارداً موظفي الكمارك وحراسهم على الحدود. وعندما علم بأن قوات إيرانية تتجمع على عجل للتقدم نحوهم انسحبت قواته. ومن ربيع العام ١٩٠٧ إستجار الرؤساء والأغوات المحليون بالسلطان لحمايتهم من جور الحكام الفرس المحليين وبوصفهم من رعاياه السنيين فانطلقت قوات من آلايات الحميدية والجنود النظامية في تموز ١٩٠٧ من مدينة وان وبلغت غرب أورمية واشتبكت مع قوات فارسية في معركة بالقرب من قرية ترگور المسيحية في سهل گور الواسع الذي تنتشر فيه قرى الحدود الفارسية والتركية. في هذه المعركة تكبد الفرس خسائر كبيرة من قتلى وجرحى وانسحبت قوتهم الى الخلف تاركة المنطقة جميعها للترك وقد خلت من سكانها تماماً بعد أن هجرها الكرد والمسيحيون سواءً بسواء. واجترأت القوة التركية فتقدمت وإحتلت المرتفعات المحيطة بمدينة أورمية. وما جاء شهر آب حتى وقعت المدينة في قبضتها وفي نهاية السنة وجدنا القنصل العثماني فيها يدعو الأهالي وسكان القرى المجاورة للتقدم بطلب التجنس بالجنسية العثمانية بدون إستثناء. وبضمنهم قبيلة القره پياغ التركية جنوب صاوبلاغ وهي قبيلة شيعية بقيت أبداً على صلة طيبة جداً بالكرد.

وذكرت جريدة (نوردار) الأرمنية بالمناسبة أن السلطان عبد الحميد الذي كان فيما يبدو ينوي أن يكون الضمّ فعلياً - بعث برسالة الى «جمشيد الملك» حاكم صاوبلاغ يعلن له فيها أن منطقة لاهيجان وبضمنها البلدة بالذات أصبحت من ضمن أملاك الدولة العثمانية وأن أهلها عثمانيو الجنسية وطلب منه أن يهيء مقرات للجيش

العثماني في صاوبلاغ لأنه سيحتلها وشيكاً.

ما جاء شهر كانون الأول حتى كانت القوات العثمانية والقبائل الموالية، تسيطر على مساحات كبيرة من شرق أورميه وشمالها وبضمنها مياندواب وبانه وسردشت. ثم أتمت تطويق صاوبلاغ ثم دخلتها.

قدر عدد القوات النظامية التي دخلت صاوبلاغ بألف وخمسمائة لاغير معززة بحوالي ضعفها من فرسان العشائر الكردية. وما أن أستقر قائد القوة العثمانية فيها حتى دعا رؤساء العشائر اليه مذكراً إياهم بأنهم يدينون الآن بالطاعة والتبعية للسلطان وليس للشاه.

في كثير من الأحيان وهذه التي ذكرناها الآن واحدة - لاتبقى القوات النظامية في المدن الكردية أو المناطق الأخرى طويلاً. وتخرج بعد الضغوط والتهديدات الدبلوماسية لتخلف وراءها فراغ سلطة، ليملاؤه تلقائياً رؤساء العشائر الكردية المتناحرون والمضطرون على الرئاسة العليا موقعين الدمار بالبنية الإقتصادية التحتية، بتهجير الفلاحين القسري وإتلاف المزارع والقرى وأعمال السلب والنهب.

أحياناً تتفق القيادات العثمانية الحدودية (وان - الموصل) مع الزعماء على عقد صفقة حماية القوافل التي تعبر الأنحاء لقاء جعلول مقطوعة، تماماً مثلما كانت تفعل قبائل الجنوب الكردستانية في حماية سير قوافل الحجيج الفرس الى الأماكن المقدسة في النجف وكربلاء. ويواصل الضباط العثمانيون على الحدود إرسال الإنذارات الى نظائهم الفرس من الجهة الأخرى من الحدود بأنهم سيتدخلون إذا ما حاولت طهران بسط سيطرتها على الكرد وإخضاعهم لحكمها.

*** ** *

مرت فترة على خروج القوات العثمانية من أورميه وتلك الأنحاء وفي خلال فترة الثورة الدستورية تألفت لجنة (أنجمن) فيها كان ممثلون كرد بين أعضائها. إلا أن أبرز نشاط لثورة المشروطه في كردستان الفارسية الشمالية تجلّى في أنجمنات إقليمي ماكو وخوي. وفي شهر آذار ١٩٠٧ نجحت إنتفاضة على مرتضى قلي خان الملقب بإقبال السلطنة والي ماكو بقيادة حفيده عزت خان الذي إستعان بالقبائل الكردية الزاحفة على

ماكو. لم يكن إقبال السلطنة قادراً على مواجهتها فهرب الى الروس مستنجداً. وفي هذا الوقت عاد حلم السيطرة على كردستان يداعب خيال السلطان فأصدر الأوامر الى قيادة الجيش الرابع في أرضروم بإرسال أربعة آليات من الحميدية الى مناطق عشائر الدزني في ولاية الموصل وغيرها من الأنحاء. كما أمر بحركة ثمانية أفواج مشاة نظامية وسبعة آليات حميدية من الموصل نحو الحدود. وقدرتها المصادر البريطانية بخمسة عشر ألفاً من حملة البندقيات.

إلا أن هذه القوة لم تتحرك فعلاً بعد أن تلقى الباب العالي إنذاراً روسياً بريطانياً مشتركاً بعدم التدخل. وعدل السلطان الى تكتيك آخر، فإتصل بزعماء الجلالى والميلاني والمنگور والشكاك والهركي بنوع خاص وبآخرين. ووُزعت عليهم أسلحة وعتاد ومال. ودفعوا بالأصل الى عمل محدود على الحدود وهو إحتلال مراكز الكمرك وطرد الموظفين الفرس منها وإجلاء الحاميات الصغيرة أو تصفيتها. في مجرى هذه الأعمال شاركت الآليات الحميدية بشن هجمات على المناطق الحدودية عامة والاعارة على القرى المتاخمة غرب بحيرة أورميه مستهدفة القرى المسيحية بنوع خاص فكانت فترة عصيبة لهؤلاء وعانى الفلاحون أشد معاناة. وبدت وكأنها عقاب على ترحيبها وايوائها الفدائيان (ثوار المشروطة). وإنضم الى هذه العشائر فيما بعد زعماء المامش والزرزه وقسم من المنگور. وفي عين الشهر (آذار ١٩٠٧) الذي شهد هروب حاكم ماكو كتب هؤلاء الزعماء وثيقة أعلنوا فيها أنهم وبوصفهم أهل السنة - من تبعية السلطان العثماني. وروج علماء الدين في سردشت لهذا الإعلان ودعوا الأهالي الى نبذ طاعة الشاه. وعلى أثر ذلك تحرك العثمانيون عسكرياً وأوعز لقيادة الفيلق السادس في (العراق) بالزحف نحو سردشت. وإمتدت هذه الحركة الانفصالية الى بانه وشنو (أشنويه) وحسنويك وسرمايه والظاهر أن الولاء القبائلي الكردي للعثمانيين لم يكن كاملاً أو يعتد به كثيراً وكان من الضروري إقحام القوات النظامية. أتمت هذه القوة في أيار إحتلال مرگور ودشت. وفي حزيران إحتلت سردشت وفي تشرين الأول دخلت شنو. وكانت كما يرى فرصة للعثمانيين إنتهزوها بإنشغال الجيش الروسي في الإندفاع داخل أذربيجان الفارسية «بغية حماية مصالحهم فيها» كما زعمت الحكومة الروسية. كان مركز (عزت خان) في ماكو مزعزجاً بعد إنفضاض القبائل الكردية المتعاونة معه

من حوله. وهنا وجب القول إن غالبية سكان القرى والبلدات الكردية في المناطق القصوى الشمالية بدت إما بتأثيرات روسية أو طبوغرافية أو إقتصادية أو كلها مجتمعة، فضلاً عن علاقات عشائرية قلقة - بقيت بمنأى عن النشاط العسكري العثماني. بخلاف المناطق التي تليها جنوباً - وهي مناطق دُعمت بالسلاح والمال كما قدّمنا.

ووجد (عزت خان) أن يستعين بالأتجمنات التي تأسست في كل من تبريز وخوي لتجهيز مقاتليه القليلين السيئي التسليح بما أمكن من السلاح والاعتدة. إلا أن الفوضى والبلبل كانت تعم تلك اللجان وكان ينقصها التنظيم والقيادة وتسرب إلى بنائها ذلك الخلاف العقائدي حول تفسير المقصود بالدستور. وبدأ النزاع الداخلي يعمل فيها تفتيتاً. وإذ ذاك تدخل الروس وقد أفاقوا من صعقة الهزيمة في ١٩٠٥ والثورة الداخلية التي عقبته. وبدأوا ينظرون نظرة جدية الى خطورة التدخل العثماني على مصالحهم ومنطقة نفوذهم في بلاد أجنبية لا تملك حكومتها ما تدافع به عنها.

كان ثمّ غياب فعلي للسلطة الفارسية. وبدا الصراع الآن بين دولتين طامعتين، تركز ظاهراً على تعيين الحدّ الفاصل بين نفوذيهما. وكثيراً ما كانت القوة العسكرية في ظرف معيّن - تملّيه عليهما وهو دائماً عرضة للتغيير.

بناءً على هذا - عندما لجأ إقبال السلطنة الى الروس طالباً معاونتهم على إعادته الى حاكمية ماكو (لاحظ أنه لم يلجأ الى طهران) أسرعوا لدعمه بعد الحصول على موافقة الشاه وكان هذا مناقضاً للإتفاق الضمني على خط نفوذهما الفاصل. في ذلك الحين كانت مناطق سلماس وصاوبلاغ في فوضى عشائرية لا مثيل لها - كانت تجوبها طولاً وعرضاً مجموعات قبائلية مسلحة همها السلب والنهب ووقعت عشرات من القرى الكردية والمسيحية ضحية مرة بعد أخرى لعصابات عدوة. ولم ينج بعضها من تدمير وقتل. ودفع الروس إسماعيل سمكو شكاك وكان إذ ذاك حليفاً - الى عقد صفقة مع حاكم ماكو. وأغروا زعماء الميلائي والجلالي بالإنضمام الى الحلف وتواصلت الإشتباكات المسلحة بين هؤلاء وبين الثائرين الدستوريين الذين نجحوا بشكل مدهش في حمل أعداد كبيرة من المزارعين والفلاحين سكان القرى خارج الولاء العشائري. في الإنضمام الى الدستوريين فطردوا أغواتهم وأسسوا لجاناً خاصة أخذت على نفسها

الدفاع عن مناطق ماكو فضلاً عن صاوبلاغ وسلماس. واستمرت المقاومة أشهراً. «إلا أن إقبال السلطنة وسمكو وأحلافهما تمكنوا بالأخير من سحق الحركة الشعبية وبسطوا السيطرة على هذه المناطق الثلاث وتم القضاء على الأنجُمَنات وأعيد نظام الإقطاع ليسود تلك الأنحاء كالسابق»^(١٠) وأعمل المنتصرون ذبحاً وتقتيلاً وسلباً وتدميراً بكل من ظفروا به من قادة المقاومة والقرويين.

في الواقع لم تزج روسيا بقوات نظامية في دراما محاولة إعادة إقبال السلطنة الى قاعدة حكمه. وإقتصر دورها على تزويد العشائر الموالية بالمال والسلاح والأرزاق. ربما لأنها لم تكن تخشى تحركاً جديداً عثمانياً. أو يعجز منها عن إثارة تحرك يقابله تحرك عثماني وقد بدا راجح الكفة وقتذاك، بامتلاكه صلات الدين والقربى فضلاً عن قوات ضاربة متفوقة قريبة من الحدود.

محصل القول كانت فترة (١٩٠٥-١٩٠٧) للأتراك العثمانيين فرصة لأفضل منها في توجيه سياسة توسعية على حساب كردستان الفارسية. لكن الموقف بدا يختلف كثيراً في العام ١٩٠٨ والأعوام الست التالية التي ختمت بالحرب العظمى فإذا هي فترة في الإمبراطورية العثمانية شابهت فترة الفوضى والبليلة التي سادت روسيا القيصرية بعد حرب اليابان. خرجت تركيا مهزومة في حروب البلقان وليبيا وخسرت أملاكها في أوروبا ثم دخلت مرحلة ذلك النزاع الداخلي السياسي العنيف عقب فرض الدستور وإطاحة السلطان في ١٩٠٩ وماتلاه من الإحتراب الحزبي على السلطة. وبمقابل ذلك كان ثم تقارب سريع وتفاهم على سياسة واحدة بين بطرسبورغ ولندن حول الموقف الذي ستتخذه الدولتان في تلك الأنحاء. وكان الجانبان يخشيان كثيراً من بداية التدخل الألماني في المنطقة، الذي سهل كثيراً وماعاد خفياً بعد ميل الإنقلابيين الترك نحو الألمان وبسبب إهتمام الألمان الفجائي بهذه المنطقة المجاورة لمشروعهم (مد السكة

١٠- الدكتور م. س. لازاريث: «المسألة الكردية في ١٨٩١-١٩١٧» ترجمة أكبر أحمد العريبي. ط. مركز الدراسات الاستراتيجية. في السليمانية. سنة ٢٠٠١. ص ١٨٣. [لايثبت المترجم المرجع الذي إستقى منه المؤلف هذا النص. والكتاب المترجم خلو من ثبت بمراجع. وما نظن هذا أغفلاً من المؤلف. ولايشير المترجم الى اللغة التي ترجم عنها. أهي الأصل أم ترجمة للكتاب بلغة أخرى؟ على أن هذا القول يتفق والمصادر الأخرى التي إستعنا بها.

الحديد من برلين الى بغداد ثم الى الخليج) وهو مشروع ذو أهمية استراتيجية عظيمة كان يجري العمل به حثيثاً.

في هذا الوقت بالذات بعثت روسيا بذاكرة احتجاج شديدة اللهجة الى طهران تطالبها بالعمل على وقف الغارات الكردية من تركيا على الحدود واتهمت الألمان الذين يدفعون العثمانيين الى تنظيم الغارات بسبب خطّ سكة شرق الأناضول^(١١) وكان واحداً من احتجاجات عدة تلقى إستجابة بسبب عجز الحكومة الإيرانية التام عن القيام بأيّ عملٍ رادع. مع علمها الأكيد بالنوايا العثمانية وبأنها تستخدم بنجاح كبير رؤساء القبائل الكردية. بل ذهبت دعوى «العثمانية» الى أبعد من ذلك فقد حاولت جرّ آشوريي أورميه اليها بمنافسة الروس وفي أعقاب الفشل المتكرر الذي منيت به بعثات التبشير الأرثوذكسية الروسية. وأولت إهتماماً خاصاً بهم لاسيما كسب ولاء زعمائهم.

على أن العثمانيين كما قدّمنا نجحوا في إقناع الكرد من مامش والزرزه والمنگور والجلالي بالإعتراف بسلطة الخليفة العثماني حيناً. حتى البگزاده في مناطق سردشت، وجدناهم يعلنون في ربيع العام ١٩٠٧ تبعيتهم للسلطان بإعتبارهم من أهل السنة طالبين من قائد القوات التركية إرسال قوات لإحتلال سردشت. وأقدمت القبائل في بانه وشنو وسرمايه على عين العمل.

كان القلق يسود الروس بنوع خاص من الإجراءات العملية التي يتخذها العثمانيون في سبيل «عثمنة» الأجزاء الكردية الحدودية أو تلك التي تحتلها كنصب الموظفين وتوزيع الأراضي على الرؤساء والأغوات ومحاولة تغيير ولاءات الرؤساء وتحويلها عن الروس الى معسكرهم. وقد حفلت تقارير قناصلهم وقناصل بريطانيا في الجوار بتجسيم الخطر الداهم مبديةً عجز حكومة طهران التام عن مواجهة القوة بالقوة. وبأنها لا تملك

١١- اندراي لوبانوف روستوفسكي: روسيا وآسيا. ط. نيويورك ١٩٣٣ ص ١٨١: Andrei Lobanov Rostoveskey: Russia and Asia. وجاء في لازاريث (المرجع السالف ص ١٨٥). أن نائب القنصل الألماني في الموصل (أنديرس) قام برحلة الى وان وقفل راجعاً الى مقر عمله عن طريق إيران. ويعتقد القنصل الروسي ترمين أن هذا الألماني كان عميلاً سرّياً عسكرياً أرسل الى الموصل خصيصاً لمراقبة سير العمليات العسكرية العثمانية ومشاوراً للأتراك. ويذكر (ترمين) أيضاً أن زميله القنصل الفرنسي الذي يعرف القنصل الألماني شخصياً. إنه يشارك في هذا الرأي. [المرجع الذي إستمد منه لازاريث معلوماته هذه غير مثبت في الترجمة].

فعلاً ذلك الجيش النظامي الذي يصمد ويصدّ الهجمات العثمانية غير النظامية التي كان يقودها ضباط أتراك.

يتحدث مينورسكي وويليام مللر وفاسيل نيكيتين وأضرابهم عن سبب جوهرى آخر لغياب القرار أو الإرادة الكردية في ميدان الصّراع على النفوذ والسلطة. وهو أنهم في كردستان الفارسية لم يبلغوا أيّ درجة من الوعي القومي. وأن الأفكار القومية لم تغزهم الى الحدّ الذي كانت تستطيع إخراج طبقة أو فئات تشعر بالمسؤولية القوميّة، تملك من القدرة ما يمكّنها من بث مفاهيم محدودة عن الحريات، وطبيعة الولاء القبائلي وحدوده لم يكن باستطاعة جنود مجهولين أو أفراد غمطهم التاريخ حقّهم بحفظ أسمائهم لنا أدركوا أهمية هذه الأنجُمات التي إنبثقت في أرجاء فارس بعد إقرار الدستور وتشكيل مجلس الشورى، ومقدرتها على فرض إرادة التغيير في حواضر كردستان وريفها الواسع الأرجاء. بل لم تكن قادرة على الاحتفاظ بتنظيمها وبنيتها الضعيفة والصغيرة المؤلفة بتشجيع الدستوريين ازاء صولات الزعماء التقليديين أصحاب المصالح الكبرى والإقطاعات.

من جهة أخرى بدت الآلايات الحميدية أحياناً في نظر كثير من الفلاحين والأقنان المرتبطين إرتباط قرار بأرض الآغا أو الرئيس وكأنها تقوم بدور المحرر لهؤلاء الذين لم يعرفوا غير الذل والإستنزاف المضاعف من قبل أسيادهم من جهة ومن قبل موظفي حكومة الشاه الغلاظ القساة من جهة أخرى رغم ما طبعت عليه هذه التشكيلات الحميدية من تحكّم وأعمال لا قانونية معيبة.

في نيسان ١٩٠٧، إقترح أحد المجتهدين الشيعة في مجلس الشورى الفارسي إعلان الحرب على العثمانيين الكفار الذين كانوا في حينه قد بسطوا سيطرتهم الفعلية في مناطق أورمية وسردشت وطالب الحكومة بسوق الجيوش لطردهم. فلم يؤخذ إقتراحه هذا مأخذاً جدياً بطبيعة الحال. ولسببين أولهما أن المجلس كان منقسماً على نفسه بخصوص تفسير المفهوم الدستوري للسلطات. فكانوا في شغل شاغلٍ عن هذه المسألة البعيدة عنهم والمجهولة منهم. وثاني السببين أن حكومة طبران لم تكن إذ ذاك تملك قوات عسكرية حتى بالقدر الذي تحافظ فيه على أمن العاصمة لا بالقدر الذي يمكن أن يساق الى جبهة ليصمد ويقضي على عوامل الفوضى أو ليحمي اللجان الثورية ويعصمها من

الإنحلال^(١٢).

في غضون الأعوام التالية التي سبقت الحرب العظمى الأولى إتخذ الصراع منحى جديداً.

في أوائل العام ١٩٠٨ كتب القنصل الروسي العام في أورميه الى وزارة الخارجية: « إن الأهمية العظيمة للمداخلة التركية هنا. تبدو في عزم العثمانيين على تثبيت نفوذهم بين الكرد، وإتخاذهم أداة لممارسة ضغوط على الحكومات الفارسية في مسألة النزاع القائم على الحدود بغرض تثبيتها بالشكل الذي يؤمن مصالحهم. من المؤسف أنه لا يوجد ثم أي أثر للتدخل الروسي في مثل هذه المسألة الجوهرية ».

فتحت صفحة جديدة من التعاون بين روسيا وبين بريطانيا. بتحديد مواقف موحدة من عملية (عثمنة) كردستان الفارسية. كانت رغبة روسيا في تحكيم نفوذها في أذربيجان الفارسية لاتتعارض بل وتنسجم وستراتيجية حليفها بريطانيا في المنطقة. وهي بالجوهر المحافظة على الكيان الفارسي كيفما كان، ووقف التوسع العثماني شمال غرب البلاد سيما بعد تقارب الإتحاديين الأتراك الشديد من الألمان المتمثل بالتعاون العسكري والإقتصادي. وعلى هذا الأساس وقعت إتفاقية الحادي والثلاثين من آب ١٩٠٧ بين القيصر نقولا الثاني وإدورد السابع. ثم بدى في الحال بممارسة ضغوط مشتركة على الباب العالي، مصحوبة بحشد قوات روسية في القفقاس. وكان ثم تلويح بالتدخل العسكري.

١٢- خير مثال نورده هنا محاولة فرمان خان فارما والي تبريز وهو من أبناء عمومة الشاه. حاول عبثاً مقاومة العثمانيين فهرب الى الروس. وفي أواخر العام ١٩٠٧ وأوائل ١٩٠٨ وهو بدء إحتدام الصراع الروسي - العثماني، حاول إعادة سلطة الحكومة في منطقة صاوبلاغ. وكان مفلساً فأعانه الروس على إقتراض مبلغ خمسة آلاف تومان بضمانتهم من بنك السلف والإعتماد الروسي لتجهيز حملة. إلا أنه لم يجرأ على الإشتباك مع القوات النظامية العثمانية وإنما وجه مرتزقته نحو الكرد القرويين دون تمييز فأوقع بهم وأحرق عدداً من قراهم وقتل الكثير. الأمر الذي حدا بكثير منهم الى الإنحياز للدستوريين والتعاون مع دعائهم المرسلين من طهران وبعض العشائر الكردية خلعت طاعة رؤسائها بسبب وقوفهم الى جانب والي تبريز. بالنتيجة آلت حملته الى الإخفاق ولم يستطع إعادة السيطرة الحكومية وانسحب من الميدان.

بعد وساطات مضنية وضغوط كثيفة بريطانية أصدر السلطان في ١٦ كانون الثاني ١٩٠٨. أمراً يقضي بإنسحاب القوات التركية من صاوبلاغ (مهاباد) وأنحائها. وتعهد بعدم إثارة أي نزاع على الحدود الراهنة والإرتكان الى القرارات التي ستصدرها لجنة الحدود الرباعية المشكلة لغرض تثبيتها نهائياً.

وفي الثاني والعشرين من حزيران ١٩٠٨ أصدر الصدر الأعظم أمراً لطاهر پاشا والي الموصل والعضو التركي في لجنة تثبيت الحدود، بوجوب سحب جميع القوات العثمانية من الأراضي موضوع النزاع وعدم السماح للقبائل الكردية المغيرة من إختراقها مع أخذ تعهدات رؤسائهم، بإستثناء القبائل المترحلة عادةً وبموجب الإتفاقات السابقة.

إلا أن تلك الحدود كانت موهومة وغير معينة. فمعاهدة أرضروم الثانية في ١٨٤٧ وهي آخر معاهدات مماثلة سابقة، جاءت بوصف عام للحدود قابل للأخذ والرد. ولذلك لم تحترمها الدولتان. فشكّلت لجنة لهذا الغرض كان فيها مندوبان أحدهما روسي والآخر بريطاني^(١٣).

وغني عن البيان أن من مقتضى الإتفاق الروسي - البريطاني هو الحيلولة بأي شكل كان دون ضمّ كلي أو جزئي لكردستان الفارسية الى الدولة العثمانية تحت غطاء الجامعة السنية الإسلامية أو بدونه.

وبفضل هذا الإتفاق تمّ تقسيم شمال إيران وجنوبها الى مجالي نفوذ. ووقعت كردستان الفارسية في مجال النفوذ الروسي إعتباراً من الحدود العثمانية في خانقين صعداً الى يزد، ومن يزد الى الحدود الأفغانية الروسية شرقاً. ودخل في مجال النفوذ البريطاني جنوب شرق البلاد كرمنشاه ومايليهها جنوباً ودخل فيها بندرعباس وكرمان وبيرجند القريبة من الحدود الأفغانية.

وبدأ بعد هذا الإتفاق، إتجاه جديد في إستخدام الدولتين العامل الكردي بأسلوب مزدوج: تغذية المشاعر القومية الكردية وإحتضان أو تشجيع الحملة الثقافية والتوعية التي يقوم بها الوطنيون الكرد. وإستمالة رؤساء العشائر الكردية الموالية على الحدود وإستعمالهم «لحماية» القوافل الذاهبة والآيبة عبر الحدود. كما تواصلت إنذارات

١٣- للإستزادة راجع الفصل العاشر «الحدود التركية الفارسية ١٦٣٩-١٩١٤ من ترجمتنا لكتاب إدموندز «كرد وترك وعرب» الص ١٠٨-١١٦.

القيادات العثمانية لنظائرها من الجهة المقابلة بالتدخل العسكري لو حاولت طهران بسط سيطرتها على الكرد عبر الحدود أو حاولت جرّهم الى معسكرها.

وبهذا بقي فراغ السلطة بيد الكرد. ووجد رؤساؤهم الحرية الكافية في بسط السيطرة كلّ على ما يمكن من الأنحاء والمناطق المجاورة بانتقالات ولاءٍ فجائية الى هذا الطرف أو ذاك. وأظهرها قيام سمو الشكاكيّ مثلاً بإلقاء الحصار على مدينة أورميه في آذار ١٩٠٩ وما تلا ذلك من إشتباك أدى الى هزيمة الروس أمام العثمانيين والكرد احلافهم، بالقرب من المدينة بعد شهرين فقط.

وفي نهاية ذلك العام عزّز الروس قواتهم العسكرية تعزيزاً خطيراً وبدوا وكأنهم عاقدو العزم على أن يكون لهم هناك ما كان للعثمانيين في ١٩٠٥-١٩٠٧.

وفي كانون الأول ١٩١١ إتفقت روسيا وبريطانيا على «عمل مشترك بغية حماية مصالحهما التجارية في المنطقة». وتمّ توقيعهما على ما عرف به (برتوكول الحدود التركية - الإيرانية) وتقدمت روسيا على أثره بطلب إنذاري لتركيا بسحب قواتها الى المواقع التي كانت تحتلها من الحدود في العام ١٩٠٥. إلا أن العثمانيين لم يأبهوا. فعمدت روسيا الى حشد قوات كبيرة في (خوي) بعزم صادق على إنهاء التواجد العثماني. لكن الترك آثروا الإنسحاب في تشرين الأول ١٩١٢. وعندها إنتشرت القوات الروسية فأشغلت الأقاليم الكردية التي كان العثمانيون وأحلافهم الكرد يشغلونها في سلماس وأورميه وصابلاغ. في الواقع أن هذه القوة وهي لاتزيد عن فرقة (عشرة آلاف جندي تقريباً) كانت عاجزة عن إحكام سيطرة حقيقية فنصفها بقي في أذربيجان والنصف الآخر نشر على شكل حاميات في منطقة واسعة بين (خوي) و(صابلاغ) لذلك إضطر الروس الى إستمالة الرؤساء الكرد والإستعانة بهم. فإذا بها فرصة لهم لاسيما لأولئك الذين طمحو الى تحسين مراكزهم محلياً. وعرض عدد كبير منهم خدماتهم لقاء حمايتهم أو ربما سعيّاً لمساندتهم إزاء خصومهم المحليين لاسيما من كان يدين منهم بالولاء للعثمانيين ويبقي على صلاتٍ خفية بهم أو علنية. وهذا بالضبط ما فعله إسماعيل سمو بغية إستثثاره بالزعامة على كونفدرالية الشكاك وإستظهاره على منافسيه من الداخل ليقلب للروس ظهر المجنّ بعد سنتين فقط وينحاز الى الترك.

وبهذا الشكل جُرّ الروس جرّاً الى النزاعات القبائلية الكردية الداخلية وباتوا طرفاً في الخصومات والثأرات إما بحماية قبيلة ضد أخرى. وإما بحماية أنفسهم من هجمات أو غارات قبائلية كردية ناقمة.

على أنه قدر لكردستان الفارسية دور مركزي في ثورة تزعمها سالار الدولة أخو الشاه أحمد المنفي في العام ١٩١١ وهي السنة التي أحبطت فيها محاولة من الشاه المبعد للعودة الى العرش. أعلن [سالار الدولة] ثورته وهو في أنحاء من سقز، وألب العشائر الكردية الناقمة وبواسطتها دخل (سنه) في السنة عينها وجال في أنحاء صاوبلاغ وسلماس وسولدوز واتصل بالأتراك فوعده خيراً وزوّد بعدد من الضباط وفصائل من القوات النظامية التركية لأغراض القيادة والتدريب ثم قام بجولات عدة بين رؤساء القبائل الكردية ويتفق ميللر^(١٤) أن الأتراك في ذلك الحين كانوا قد فقدوا إهتمامهم بكردستان الفارسية ومستقبلها السياسي وكان تشجيعهم سالار الدولة متأتياً من قصدهم الحدّ من نشاط الروس في أذربيجان بمحاولة غزو تبريز بقوات كردية. ولذلك شجعوه على الإستعانة بالكرد بزعم إقامة دولة كردية منفصلة عن إيران يقوم هو على رأسها. وجنّدوا له مما جنّدوا شيخ تهويله النقشبندي الشيخ (علاء الدين الحسيني) ذو المقام الجليل وذكروا أنه إستطاع أن يقنع رؤساء أكراد كبار من أمثال محمد پاشا من بكزاده الجاف ومحمد آغا خسرو من عشائر زنگنه وسردار مظفر من زعماء الكلهور ولفيف من أغوات الموكري. وذكر أنه كان يحمل من الشيخ عبدالقادر النهري وغيره من كبار علماء السنيّة الكرّد رسائل من علماء السنيّة تحثّ كرّد فارس على الإنتصار لقضيته مشيرة الى أن أيّ معارضة أو مقاومة له تعني الوقوف ضدّ شيخ الإسلام في استنبول!!

في الواقع لم يكن من قبيل الصدف أن يختار (سالار الدولة) الجزء الكرديّ من إيران كنقطة إنطلاق له. فقد كان على صلة وثيقة وعلاقة حميمة بزعماء كرد الشمال والكرّ في الجنوب منذ أيّام حاكميته على لرستان في ١٩٠٦. كما كان قد تزوج من ابنة والي پشتكو الكردي، وقد داعبته زمن ولايته تلك فكرة إقامة دولة في كردستان مجتزأة عن سائر بلاد فارس.

١٤- أنظر ثبت المراجع في آخر الفصل.

عرض سالار الدولة على زعماء القبائل الكردية أن يقودهم في حربٍ ضدَّ الحكومة الدستوريَّة في طهران بقصد إعادة الشاه. وشجعه في ذلك علمه أن هؤلاء الزعماء ناصبوا الحكومة الدستورية العداء عموماً. وحقق بعض نجاح في إحلال الصفاء بين السنجابي والكلههور. وخاطب داودخان فتردد هذا كثيراً ولجأ إلى الخديعة والتسويق بإرسال وعودٍ مشابهة للطرفين. أي لسالار الدولة من جهة والحكومة دستوريي طهران من جهة ثانية إلا أنه حزم أمره أخيراً عندما طلب منه سالار الدولة أن يتولى الحكم في كرمنشاه فقضى على ترده وإنضمَّ إليه كغيره من رؤساء العشائر الآخرين.

وتمكن سالار الدولة من حشد قوة كردية تناهز عشرة آلاف مقاتل قبائلي وكان جيشاً واهي العرى عمنته الفوضى لا يجمعه جامع عقائدي، غايته الأولى والأخيرة الإستيلاء على الغنائم والنهب.

وفي ضواحي سلطان آباد المدينة التي تبعد زهاء ثمانين ميلاً غرب طهران، حلت الهزيمة بسالار الدولة وتفرقت القبائل الكردية فتقهقر بما تبقى له من الأتباع إلى كرمنشاه في ١٩١١.

ورافق داودخان سالار الدولة في محاولة ثانية للزحف على طهران. إلا أنه قتل هو وإبنه (جَوَّان) في معركة فاصلة بالقرب من (سهنه) وحصد عدد كبير من الكلهور حصداً بنيران الرشاشات وهرب سالار الدولة إلى لُرستان^(١٥). وموت داودخان زالت تلك العقبة التي كانت تحول دوماً بين الصلح مع القبائل الكردية المجاورة. وخلفه إبنه الشابان سليمان خان وعبَّاس خان.

تلك كانت الأحوال في كردستان عند احتدام النزاع بين الملكيين (المشروع) وبين

١٥- بقي سالار الدولة في حمى القبائل اللرية ردحاً من الزمن ألا أنه لجأ بالأخير إلى العراق في أولى أيام الحرب العظمى ونزول القوات البريطانية البصرة. يذكر آدموندز عنه [انظر ترجمتنا لكتابه كرد وترك وعرب. الطبعة الثانية. أبريل ص ٨٣] «في ١٩١٩... المهمة الوحيدة التي القيت على عاتقي هي تأمين راحة (سالار الدولة) قدر ما أمكن في خيمة عسكرية ضربت له داخل أسلاك شائكة وفي وسط معسكر كثير الغبار وبدرجة حرارة ثابتة قدرها ١٠٥ فهرنهايت في الظل. وسالار الدولة هذا هو الإبن الضال المشاكس للأسرة الحاكمة القاجارية في إيران. كان قد ظهر مرة أخرى في المناطق الكردية على الحدود التركية والإيرانية يثير القلاقل والشحناء. ثم أقنع بتسليم نفسه لنا.»

الدستوريين (المشروطه) خلال العقد الأول من القرن العشرين. ولم يكن بين الكرد مثقفون وقادة فكر ولا طبقة متعلمة أو برجوازية وهي البؤرة التي تنطلق منها المشاعر القومية وهم الطليعة المساهمة في المعركة السياسية - الإجتماعية الناشبة. فالقبائل يقودها رؤساؤها، ورؤساؤها يتحول ولاؤهم للحكومة والمجلس أو للعرش طبقاً لمصالحهم القبائلية وهم خصوم تقليديون لأهل الحواضر والمدن كما رأينا.

ليس في وسعنا والحالة هذه أن ندخل هذه المرحلة لكردستان فارس في نطاق حركة يقظة قومية كردستانية بأيّ درجة. خلال تلك الحقبة من الزمن^(١٦) خلافاً لما ذكرنا.

١٦- إعتمدت في هذا الفصل عدة مراجع أخرى- دونت محتوياتها في أجزاء متفرقة من دفاتر ملحوظاتي دون أن أعنى بتسجيل أسم المرجع. بعض المراجع فارسي، وبعضه انكليزي. ويخطر ببالي الآن ثلاثة مراجع رئيسية. الى جانب تقارير الميجر سون وتقارير الإدارة في العراق وبعضها بقلم مس بل. ومن أبرز المراجع العامة التي إعتمدتها: المجلد السابع من كاتب تاريخ كمبردج لايران The Cambridge History of Iran. وكتاب: ايران بين ثورتين: لسيروند ابراهيميان Ervand Ibrāhīm - مطبعة پرستون ١٩٨٢. وكتاب حسن أرفع: في عهد شاهات خمسة: Hasan Irfāʿ: Undal Five Shahs. طبع لندن ١٩٦٤. وكتاب ويليام ميللر: الإمبراطورية العثمانية وخليفاتها ١٨٠١-١٩٢٧ The Ottoman Empire and its Successors 1801-1927 كمبردج ١٩٣٤. وكتاب فلاديمير مينورسكي: دراسات في تاريخ القفقاس V. Minorsky: Studies In Caucasian History السلسلة الشرقية رقم ٦ - كمبردج ١٩٥٣. وكتاب أندراي لوبانوف - روستوفسكي: روسيا وآسيا Andrei Lobanov-Rostovsky: Russia and Asia نيويورك ١٩٣٣. وكتاب م. س. لازاريف: المسألة الكردية ١٨٩١-١٩١٧. من ترجمة أكبر أحمد العربية (وقد أشرنا الى بعض مقتبسات منه). هذا الى جانب مراجع عدة لاتحضرنى أسماؤها ولم أعن بتسجيل لها.

الفصل الثاني

كردستان "العثمانية" وإنقلاب الإخاديين والآليات الحميدية. حزب
الاتحاد والترقي. اسرنا بدرخان والنهري. مفهوم الحرية والإخاء.
الجمعيات الكردية. ظهور الصحف الكردية في تركيا. المطالبة
باللامركزية.

في مفتتح هذا القرن شاركت شخصيات كردية مثقفة في حركة الإصلاح ودأبت على
العمل السياسي الهادف الى التغيير في أوضاع الإمبراطورية العثمانية العامة، الى
جانب القوميات العثمانية الأخرى: التركية والعربية والأرمنية وغيرها.
لم يكن أيُّ من تلك القوميات إذ ذاك يفكر في الانفصال والإستقلال. كان الوعي
القومي محدداً باطار العثمانية. ويبدو أن الوقت لم يكن قد حان للحديث عن
الإستقلال أو العمل بهدف الإستقلال.

والظاهرة التي تلفت النظر هنا هي وجود نوع من التجاوب والتناغم بين المثقفين من
سكان المدن وبين الريف وأوساط قبائلية واسعة. بل هناك رغبة متحدة في المناداة
بالإصلاح وتلك ظاهرة تخالف ما وجدناه في الجانب الفارسي من كردستان. فقد كان
رؤساء العشائر هناك يقودون عشائرتهم الى الخندق المعارض للإصلاح ويخوضون
الوقعات الدموية الى جانبه. ولم تكن لرغبات أهالي المدن والحضرين خطوة أو تجاوب
عند الريف والمجتمع القبلي.

ولم يثنِ العدد الوافر من المخبرين والجواسيس ورجال الشرطة السرية هؤلاء
الاصلاحيين عن المواظبة والنشاط فيما يعملون له. إلا أنهم أرغموا بحركاتهم
وجمعياتهم على السرية والتخفي.

في مفتتح القرن. وربما قبله بعقد أو عقدين من السنين كان ثم مجموعات عسكرية
ومدنية تعمل في الخفاء. بينها مجموعات كردية، لاسيما في عاصمة الإمبراطورية

وفي الحواضر الهامة ومراكز الولايات. بل في كردستان الريفية. كان هناك خميرة وخبرة عميقة في مجال البحث عن الهوية القومية. وهي بأصلها في رأيي ردة فعل الأزمة السياسية والاقتصادية اللتين أخذنا بخناق الإمبراطورية العثمانية. إلا أن الحل الذي أتفق عليه عموماً لها كان ضمن الإطار العثماني.

أن تكون تركياً أو كردياً أو عربياً أو أرمنياً؟ أمر لا يثير أي إشكال فأني من هذه الأطراف كان على استعداد ليقذف من النافذة بكلمة تركي أو كردي أو عربي أو أرمني ويستعيز عنها بالعثمانية إن كانت هذه الصفقة تعني أو تحقق المساواة التامة في الحقوق والواجبات.

في مفتتح القرن لم يكن هناك طموح سياسي قومي. بل شعور بالغبن القومي وبضرورة الإصلاح.

مع هذا كله، وبخلاف طبقة المتنورين والمثقفين الواعين. كان ثم إتجاه آخر للكرد يختلف اختلافاً كبيراً. وأصحاب هذا الإتجاه ولأسباب عدة - كانت تكفيهم العضوية في (أخوية) الإمبراطورية العثمانية بأي صفة، وهذه الفئة كانت تخشى التغيير السياسي وتتمسك بالسلطان خليفة المسلمين. نوع من (الكردية) بالأحرى، تُحدّد جوهرياً بالتمسك بالتقاليد القبائلية وتشدها الى بنية المجتمع العامة وأصر الدين. وهو ما كان يرغب فيه النظام القائم، ويعمل على تشجيعه. ولهذا وجدنا السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٤٢-١٩١٨) الذكي الواسع الحيلة يركن الى القبائل الكردية عندما أمر بتشكيل (آلياته) شبه العسكرية المعروفة بالآليات (الألوية) الحميدية نسبةً اليه^(١).

١- في العام ١٨٩١ أصدر هذا السلطان فرماناً بتشكيل وحدات خيالة غير نظامية في الأناضول الشرقية (كردستان تركيا). باحساس مرهف من الشك في الجيش النظامي والريية في ضباطه، بدا له أن تلك القوات التي أمر بها ستكون عنصر موازنة أو ردع لأي حركة يقوم بها الجيش ضده. وذكر بعض الكتاب الذين سبقوني سبباً غير هذا. قالوا انه كان يقلّد بها فرق القوزاق الروسية التي كان الروس يستخدمونها بنجاح كبير في شن غارات حدودية عبر القفقاس، وذكر آخرون من أغراضها السيطرة على الكرد وضرب التجمعات الأرمنية والآثورية عند عصيانها. وتألّفت هذه الآليات من عشائر الكرد السنية فقط، التي دان رؤساؤها بالولاء للسلطان. ورتب أن يكون قوام الآلاي (٦٠٠) خيال. يؤخذ عادةً من قبيلة واحدة، أمرها رئيس القبيلة نفسه بعد منحه الرتبة العسكرية (الباشوية أو البكوية) تبعاً لقانون الألقاب العثماني. وكان إقبال رؤساء =

إن حزب أو جمعية (الإتحاد والترقي) السريّة خير مثال يمكننا عرضه هنا. وتلك هي الجمعية التي حققت الانقلاب العثماني على السلطان عبد الحميد في العام ١٩٠٨.

= العشائر كبيراً للانضواء الى هذه التشكيلات (آلاياري حميديه) بسبب الإمتيازات التي يتعمّم بها منصبهم. فخلافاً للرتبة (وتأتي مع الحلة الرسمية المقصبة والوسام الحميدي للرئيس) كان أفراد تلك الآلايات يعطون بزة فخمة على غرار بزات القوزاق، يطرزها الشعار الهمايوني وهو طرّة أو طغراء نحاسية تميزهم. وتُعفى القبيلة المجنّدة من كثير من الضرائب والأعباء التي تفرضها الحكومة المركزية أو حكومة الولاية. ويطلب من رؤساء القبائل هؤلاء أن يرسلوا أبناءهم الى إحدى المدارس العشائرية الخصوصية في استنبول (عشيرة مكشيلري) أو بعض مدن كردستان الهامة (ديار بكر) و(سيواس) ليتلقوا العلوم ويتمثلوا في المجتمع العثماني الحضري ويأخذوا بأسباب المدنية ثم ليعودوا ضباطاً لتلك الآلايات بعد تخرجهم في المدارس العسكرية. وإهتمت السلطة أيضاً بإنشاء مدارس في بعض القرى والقصبات الهامة للعامة من السكان الريفيين. وأسندت القيادة العامة للآلايات الى قائد الجيش الرابع في أرضروم وهو برتبة مشير (مهيب). ولكنه وهو المرجع الأعلى كان يقيم في استنبول. إذ رتب أن لا تنظم تلك الوحدات معسكرات وإنما تبقى موزعة في كل أنحاء كردستان. أعني قوات ذات طابع محلي إلا عندما تستدعى للخدمة الفعلية. والفكرة وراء هذا أن معظم رجال هذه الآلايات كان سيتركها إذا ابتعد عن موطن قبيلة وأسرته.

لم يمر وقت طويل على تأليف هذه الوحدات شبه العسكرية حتى ذرّ قرن الخلاف والنزاع الداخلي داخل القبيلة الواحدة إذ بدأ رؤساء القبائل المجنّدة يحترقون على الرتب ويتنافسون على من تكون له المرتبة العليا والمقام الأسمى في القبيلة نفسها. ثم أن الرؤساء من القادة المحليين ماكانوا يفرقون بين أعداء قبيلتهم وأعدائهم من الخيالة الحميدية. فتراهم يشنون الغارة عليهم وكأنهم ليسوا منهم. ثم أنداح النزاع وإتسعت رقعته الى السلطات المحلية. وعلى سبيل المثال كانت هناك قبيلة (الجبرانلو) السنية التي جندت أربعة آلايات (اي ٢٤٠٠) فارساً. ما لبثت أن أسرعت بمهاجمة (الخورماك) وهي قبيلة كردية من الطائفة العلوية، فنهبت وطردت القرويين وصادرت أراضيهم. ووقفت السلطة المحلية موقف متفرح لا تقدم على عمل. وإمتد إعتداء الآلايات الحميدية الى القبائل الكردية السنية التي لاصلة مودة بينها وبين قبائل الحميدية وتعرضت لعين الإنتهاكات وانتزعت أراضيها بالقوة وسلبت مواشيتها وقطعانها. وكثيراً ما إستهدفت أعمالها اللاقانونية المدن والقصبات. وتشكلت منهم عصابات مغيرة لا تتورع من القيام بغاراتها وهي بالزي الرسمي. ولقبتهم العامة بـ(تنكلي) أي أصحاب التنكة نسبة للشعار الهمايوني المثبت فوق قلائسهم. نوه بها لنج H. F. B. Lynch في كتابه [أرمينيا: رحلات ودراسات Armenia: Travels and Studies لندن ١٩٠١. ج ٢ ص ٢١٩] متحدثاً عن رحلة له في إقليم أرضروم وأردف يقول: "كان الموظفون يخشون أن يذكروا في تقاريرهم بأن هذه الجرائم يرتكبها أفراد الآلايات الحميدية. فيكتبون -أنها من أعمال عصابات تنزياً بيزات الجنود!-".

وتعجز دائرة (المشير) في استنبول عن دفع رواتب قادة الآلايات فتمنحهم بدل ذلك الحق في جباية الضرائب من قرى الأرمن المنتشرة في تلك الربوع. فتعتمد الى ممارسة كل نوع متصور من =

فهي مثل حيّ على الظاهرة اللاقومية التي تجلت فيها قوة الجامعة العثمانية، ويكاد المؤرخون يطبقون على هوية مؤسسي الإتحاد والترقي التركية والكردية والعربية والأرمنية.

ليس بوسعنا أن نتابع مراحل يقظة الشعور القومي الكردي من غير التطرق الى ثورة الدستور في تموز ١٩٠٨ التي حققها (الجون ترك = تركيا الفتاة)^(٢) وهم فرع لجمعية الإتحاد والترقي، بتأثيرها العميق على مصائر شعوب الإمبراطورية العثمانية ومنها الشعب الكردي.

هذه الثورة كانت ختاماً لسنوات عديدة من النشاط السياسي السري داخل تركيا

= التضييق من حيس وجلد ومصادرة لتغدو بالآخيره مصدر نقمة وإضطهاد منصب على الأرمن والكرد المسالمين معاً. ووقف الجيش عاجزاً مثلما عجزت الإدارة عن التدخل. ولم يسجل للآليات الحميدية في جنوب كردستان لاسيما في منطقتي كركوك وأربيل القبائليتين عمل لاقانوني، وكان إقبال القبائل العربية في جنوب ديار بكر والجزيرة على الإنضواء الى الآليات الحميدية ضعيفاً جداً وبقي الكرد مركز الثقل فيها.

منيت فكرة الآليات هذه بفشل ذريع من ناحية الغرض من تأسيسها. وخلفت أسوء أثر في بنية الكرد القبائلية، إذ بدلاً من تحكم أو اصر الرباط القبائلي أدت الى إضعافه بإحياء الضغائن ومنح رؤساء العشائر سلطات حكومية لامحدودة على قبائلهم. وبقي هذا التنظيم مصدر قلق لكردستان. وفي العام ١٩٠٢ حاول القائد العام المشير زكي باشا الحد من أعمالهم وأوقع عقوبات بهم وحل عدداً من أفواجهم.

وجه الغرابة أن حكومة الإتحاد والترقي احتفظت بقوام هذه التشكيلات بعد سقوط عبدالحميد الثاني إلا أنها أعادت تسميتها فأطلقت عليها أسم (عشيرات آلايكي = آليات العشائر) ولم تفلح قط في وقف إعتداءاتها. أو إصلاح أمرها. على إنها أرسلت وحدات منها للمشاركة في قمع ثورات في بلغاريا ومقدونيا والباينا في ١٩١١. وفي اليمن ١٩١٢ (حيث أعلن أحدهم انه المهدي المنتظر وأشعل ثورة). ولم تحقق هذه الآليات نصراً في أي من تلك الميادين وأصبحت بخسائر فادحة ولحقتها سمعتها السيئة بإرتكابها أعمالاً وحشية حيثما أرسلت. ثم حلت في خريف العام ١٩١٤.

راجع: "تاريخ الإمبراطورية العثمانية وتركيا الحديثة ١٩٠٨-١٩٧٥" لمؤلفيه ستانفورد وشو وكورال: ج ٢، ط كمبردج ١٩٧٧، ص ٤٢٦:

Show, Stanford and Kural: History of The Ottoman Empire and Modern Turkey (1908-1975)

٢- الترجمة الدقيقة لإصطلاح جون ترك هي (الشبان الترك). إلا أن المؤرخين العرب أثروا ترجمته بـ(تركيا الفتاة) فجاريهاهم إلا أننا فضلنا إيراد التسمية بأصلها في أغلب الأحيان.

وخارجها إستقطبت في جمعية أو حزب الإتحاد والترقي^(٣). في عين الوقت كان ثمّ مثقفون يعنون بمصير الإمبراطورية وبدور القومية الكرّدية فيه.

٣- تألفت نواة هذه الجمعية في استنبول العام ١٨٨٩. ومؤسسوها الأوائل وهم إسحق سكوتي وعبدالله جودت (كرديان) وإبراهيم تيمو (ألباني) ومحمد رسيد (چركسي) وهؤلاء كانوا إذ ذاك تلاميذ في كلية الطب العسكريّة. وتألفت لجنّتها الأولى من اثني عشر عضواً داخل الكلية. وأتخذت مساراً لعملها على خطوط جمعية (الكاربوناري). إن حقيقة كرّدية الأغلبية المؤسسة لم تكن عاملاً على تأسيس الجمعية. بل كان الغرض منها الإصلاح لعموم الإمبراطورية العثمانية. من مؤسسيها عبدالله جودت كان من قرية (عربكير) تلقى علومه الثانوية في أزيك (معمورة العزيز). وانتقل الى استنبول في العام ١٨٨٤ وواصل فيها دراسته. وفي العام ١٨٩٢ وهو في الكلية أفتضح أمر الجمعية وقُبض على عدد من أعضائها. والظاهر أنه هو (سكوتي) لم تتخذ إجراءات قضائية ضدّهما بل أفرج عنهما بعد تحذير، لكنّهما واصلتا نشاطهما ودراستهما. وفي ١٨٩٥ قبض عليهما ثانية وأبعد (جودت) الى طرابلس في شمال أفريقيا. كما أبعد (سكوتي) الى جزيرة رودس. لكنّهما استطاعا الهرب الى أوروبا عن طريق تونس ونشط (جودت) فكرياً، وأيد مطالب الأرمن، ودعا الى إقامة وحدة عمل بين الأرمن والكرّد. على انهما لم يواصل الى نهاية الطريق فقد بان ضعف إرادتهما وتذبذبهما عندما عقدا صفقتيهما الشهيرة مع نظام السلطان. كانا يصدران في (جنوه) بإيطاليا جريدة (عصمانلي) منذ العام ١٨٩٧ بمعونة (عبدالرحمن) ابن الأمير بدرخان وغيره. فرضيا في ١٨٩٩ بوقف الجريدة مقنعين زملاءهم من الجون ترك بالرضا بهذه التضحية لقاء الإفراج عن السجناء السياسيين والمبشرين في داخل الوطن المعتقلين في قلعة طرابلس السيئة الصيت. كان عملاً إنسانياً عاطفياً إلا أنه ناقض أهداف حركة الجون ترك وأوقع الإضطرابات في خططهم. ولم يكتفيا بهذا وزادا عليه عملاً أخرق في العام التالي تعذّر الاعتذار له أو تبريره. إذ قبل كلاهما منصباً غير سياسي في سفارتين عثمانيتين: (جودت) في سفارة قيينا. و(سكوتي) في سفارة روما. فخرجا على الجمعية إلا أن قراراً رسمياً بطردهما لم يصدر. وتوفي (سكوتي) في فرنسا العام ١٩٠٢ ورثاه عبدالرحمن بدرخان في جريدته (كردستان). وأثنى عليه وأيد إخلاصه لتربة كردستان. إلا أن ذلك لم يفد في ردّ اعتباره. وبقي عبدالله جودت في المنفى وأعيد له بعض اعتباره عندما قبل عضواً في حزب (اللامركزية) التابع للجون ترك بعد تأليفه في العام ١٩٠٢. لكنه كان قد قتل كل طموح سياسي فيه بفعلته وفي العام ١٩١١ عاد الى استنبول. ومع إنه انضم الى النادي الكردي في نهاية الحرب إلا أنه بقي خلال الحرب داعيةً للامركزية العثمانية.

وحول جمعية (الكاربوناري) التي إقتفى الجون ترك خطاها واتخذوها نموذجاً قلنا: الإسم إيطالي Carbonari ومعناه حارقو الفحم أو الفحامون وهي الجمعية الثورية السرية التي نبه شأنها في أوائل القرن التاسع بإيطاليا المجزأة. ومع أن الغرض من قيامها بالأصل كان بهدف إعادة أسرة البوربون الحاكمة الى عرش نابولي إلا أنها تحولت أخيراً الى الإتفاق والتعاون مع جمعيات =

وقع مؤسسو جمعية الاتحاد والترقي تحت تأثير مبادئ الثورة الفرنسية في الحرية والمساواة والإخاء. وقد جمع بينهم الكره لنظام حكم السلطان عبدالحميد. وشعور المواطنه وضرورة الإصلاح بهدي من الأفكار السياسية والاجتماعية الغربية. ونسجوا على غرار الجمعيات السرية الأوروبية كجمعية الكاربوناري الإيطالية والجمعيات الماسونية وغيرها.

خلافاً لكل من (إسحق سكوتي) و(عبدالله جودت) ساهم عدد آخر من الكرد في الجمعية داخل تركيا وخارجها. وفي العام ١٩٠٢، قام فرع (الجون ترك) من الاتحاد والترقي بعقد أول مؤتمر لهم في باريس باسم "المؤتمر الحر". ووجد بين المشاركين الكرد عبدالرحمن بدرخان وحكمت بابان الى جانب عدد كبير أسندت اليهم مراكز هامة في الجمعية من أمثال اسماعيل حقّي بابان العضو في مجلس المبعوثان عن بغداد. والصديق الحميم لجريدة (طنين) الناطقة الرسمية باسم الاتحاد والترقي وقد أسندت اليه وزارة الإنشاءات العامة بعد الانقلاب. وسليمان نظيف والي الموصل فيما بعد الإداري والصحافي المتحمّس الشديد الكلف بعملية التتريك رغم أنه كردي الألبين.

بين جماهير الكرد المثقفة المهتمة بمصير الإمبراطورية برزت في الصورة اسرتان شهيرتان. أسرة دينية وأخرى علمانية. والأولى هي سادة النهري (شمدينان). والثانية أمراء بدرخان. كان إهتمام الأسرتين في تلك الفترة منصباً على إيجاد حلول للمسألة الكردية ضمن الإطار العثماني. إلاّ انهما اختلفتا عندما اضطرتا كل الى سلوك سبيل معين حتّمه واقع كونهما أسرتين صاحبتين نفوذ كبير في أجزاء من كردستان الوسطى متجاورة. وكانت منافستهما بعض لبعض مثلاً ورمزاً للتفرقة والتشتت في الملامح التي سادت تطلّعات القومية الكردية.

كان الشيخ عبدالقادر النهري العضو الأنشط في الأسرتين. وقد سُمح له بالعودة الى استنبول بعد وفاة والده. ولم يؤذن له بالعودة الى كردستان حيث أخوه الشيخ محمد صادق الذي خلف أباهما في المشيخة. وحقد عبدالقادر على هذا الحرمان من الزعامة

= "إيطاليا الفتاة" السرية التي إستحدثها الوطني الإيطالي الكبير جوزيبي مازيني (١٨٠٥-١٨٧٢) وأشعلت عدة ثورات داخلية ضدّ النظم الرجعية الإيطالية حتى تمّ تحقيق الوحدة الإيطالية (١٨٦٢) إستخدمت اسم الكاربوناري عدّة حركات ثورية في فرنسا وإسبانيا والبرتغال.



سيد طه النهري



الشيخ عبدالقادر النهري والدكتور كوجران - أوميه ١٨٨٠

الروحانية وكانت له أسبابه في الاعتقاد بأن خلافة أبيه من حقه. على أنه وجد في السياسة بديلاً ومجالاً لطموحه فانتظم عضواً في جمعية الاتحاد والترقي. وكان في العام ١٨٩٦ واحداً بين المعتقلين الذين اتهموا بتدبير مؤامرة لاسقاط عبد الحميد أفلحت السلطة في كشفها. فنفي هو وأسرته.

وهكذا وجد الشيخ عبدالقادر ان قناة طموحه الوحيدة ترتبط بالإصلاحيين العثمانيين. ولم يعد الى استنبول إلا بعد نجاح الانقلاب.

ولأمراء آل بدرخان سجل سياسي قلق تتخلله محاولات غير ناجحة آلت الى الفشل. إن أبناء الأمير بدرخان البوتاني الشهير العديدين لم يقبلوا قط بهزيمة والدهم. ففي العام ١٨٧٩ أشعل إثنان من ولده (عثمان وحسين) ثورة قصيرة الأمد في بوتان. وفي العام ١٨٨٠؛ باشر ابن آخر يدعى (بحري بك) لعبة مزدوجة بين استنبول وبين الشيخ عبيد الله النهري^(٤) وفي ١٨٨٩ حاول إبنان آخران (مدحت وأمين عالي) إثارة القبائل إلا أن سرهما أفتضح وألقي القبض عليهما قبل ان يتمكنوا من تعبئة قوات كافية. ولا يعلم متى أفرج عنهما. إلا أننا نجد (مدحت) في العام ١٨٩٠ في القاهرة. وفي نيسان ١٨٩٨ أصدر هناك جريدة باسم (کردستان) باللغة التركية والكردية الكرمانجية، ساندت الاتحاد والترقي من جهة وأثارت مشاعر الكرد القومية بقيادة شيوخهم وشخصياتهم البارزة من جهة أخرى في عين الوقت. ثم انه نقل الجريدة الى جنيف ثم الى لندن. ثم الى مدينة فولكستون الساحلية بإنجلترا ولا يعلم سبب وجيه لهذا التنقل إلا رغبته في أن يكون قريباً من المعارضين المبعدين والمنفيين الأتراك في المدينة خصوصاً وفي أوروبا. وتخلّى عن رئاسة التحرير بعد فترة لعبد الرحمن بدرخان وحكمت بابان. وقد نوهنا بهما.

مثل المؤتمر الحرّ للجنون ترك المنعقد في باريس العام ١٩٠٢ مرحلة فاصلة في نشاط

٤- عنه وعن القضية الأرمنية. راجع كتابنا مبحثان على هامش ثورة الشيخ عبيد الله النهري. ط. دار نارس - أربيل سنة ٢٠٠١. في حدود العام ١٩٠٧ كان في القاهرة مطبعة باسم «مطبعة كردستان العلمية» لا أعلم عنها الكثير وعمّن ساهم في نشاطها. إلا أن كتاباً باسم «تأويل مختلف الحديث لإبن قتيبة الدينوري» قام بطبعه أحد المساهمين فيها يدعى (محمود شابندر زاده البغدادي). وجدت ذلك في ص ٢٧ من كتاب عيون الأخبار لإبن قتيبة الدينوري. ويغلب على ظني أنها كانت من نشاطات البدرخانيين في مصر آنذاك وأن اسم محمود شابندر هذا مستعار.

"الإتحاد والترقي" السياسي. فقد تمخض بإنشقاق حاسم بين الليبراليين العثمانيين والقوميين الترك. وأسفر الخلاف عن وجهه عندما دعا الليبراليون الى مساندة الأرمن في طلبهم تطبيق المعاهدات الدولية حول حمايتهم والإعتراف بخصوصياتهم القومية. وعارض القوميون الترك ذلك وأصرّوا على أن ليس من حق أي عامل خارجي التدخل في شؤون الإمبراطورية العثمانية الداخلية.

وأبى عبدالرحمن بدرخان إلا أن ينحاز الى الجانب الليبرالي. ثم إنضمّ الى حزب (اللامركزية) العثماني الذي كان يدعو الى إقامة نظام فدرالي كامل للدولة. غير أن هذا الحزب فشل حتى في استرعاء إهتمام الرعايا المسيحيين حين وجدت الأكثرية ضالتها في الشعار الأكثر جاذبية وهو شعار الجون ترك القومي التركي.

من ناحية أخرى لجأ (عبد الحميد) في محاربة دعاة الإصلاح الى تقوية الروح الدينية بعد خيبة أمل في الآليات الحميدية بتشجيعه الطرق الصوفية والتكايا والمعاهد الدينية وتقريبه العلماء وإغراقهم بالإمتيازات في كل أرجاء الإمبراطورية ولاسيما في كردستان. إلا أن علمانية الجون ترك كانت قد رسخت وإمتدت جذورها الى ضباط الجيش والطبقة المتعلمة لدى كل شعوب الإمبراطورية. فكانت ثورة ١٩٠٨.

مهّد للإنتقال، الإتفاق الأنكلو روسي. ففي حزيران ١٩٠٨ تمّ في ريغا (تالين) عقد معاهدة بين أدورد السابع والقيصر نقولا الثاني مع تفاهم بخصوص تركيا. وذكر انهما وضعاً خطاً مفصّلاً من أجل فرض اصلاحات تؤدي بالنتيجة الى جعل الإمبراطورية العثمانية منطقة منزوعة من السلاح. وأخذ الجناح العسكري من الجون ترك بهذا الإتفاق على حين غرة. كانت صدمة عنيفة لضباط الجيش عموماً وقرروا العمل فوراً لإحباط هذا الإتفاق. وشارك صغار الضباط والموظفون في تلك الحركة التي جمعتها خيمة الإتحاد والترقي وأرغموا السلطان عبدالحميد على العمل بدستور ١٨٧٦ الذي وضع على الرف في ١٨٧٨ كمقدمة لإجراء اصلاحات أعظم شأناً.

أراد الجون ترك أن يبرهنوا للدول الكبرى بأن تركيا لا تُعَدُّ الرغبة ولا المقدرة على إصلاح أمرها بنفسها بقيامها بالإصلاح بذات نفسها ومن دون أن تدعو الحاجة الى تدخل أجنبي.

وإستقبل الإتحاد بحماسة منقطعة النظير في طول الإمبراطورية وعرضها وشارك

الكرد في الإستبشار بها الى جانب شعوب الإمبراطورية من عرب وأرمن وترك وألبان وهنأوا بها بعضهم بعضاً وأقسموا فيما بينهم على نسيان خلافات الماضي والعمل معاً للمصلحة العامة ولخير والتقدم الوطن العثماني الكبير. وبدا وكأن عهداً جديداً من الأخوة والتعاقد قد أهلّ على سماء الإمبراطورية.

تسلمت جمعية الإتحاد والترقي الحكم فوراً. وأعلنت حكومتها مما أعلنت (فضلاً عن بعث الدستور) المساواة التامة بين جميع العثمانيين مسلمين وغير مسلمين وقررت إجراء انتخابات عامة لإقامة حكومة دستورية.

إلا أن الحرية (حرية) وقانون أساسي (دستور) وحكومة دستورية (مشروطية) وهي الشعارات التي أطلقتها الثورة فُهمت فهماً معكوساً في سائر أنحاء الإمبراطورية وهو ماسنأتي الى شرحه.

ولقيت الثورة صداها الأوسع بين مثقفي شعوب الإمبراطورية وإستقبلوها باستبشار وإن كان فيها على ما بدا واقع التأكيد على الأخوة العثمانية. على أن الهوية القومية كانت قبل الثورة موضوعاً مطروحاً للنقاش والبحث حتى بين الكرد أنفسهم وإن انحصر الأمر في دوائر ضيقة. لم يكن كلّ كردي يشعر بحنين خاص الى الهوية الكرديّة. بل كثار من المثقفين والشخصيات البارزة الكرديّة كانوا يؤمنون بالأيديولوجية الرسمية أي الجامعة العثمانية كاسماعيل حقيّ بابان الذي نوّنها به وهو الشخصية المتنفذة في جمعية الإتحاد والترقي بحكم عضويته في لجنّتها المركزية (العليا) وبحكم صلاته الوثيقة جداً بـ(طنين) جريدة الاتحاد الرسمية. ومثله في ذلك الأديب والشاعر والسياسي الكردي سليمان نظيف والي الموصل في ١٩١٤. الذي توجّ حماسته للتركيّة بجرّمة قتل الشيخ عبدالسلام البارزاني والإجراءات القاسية التي اتخذها ضد ثورته^(٥).

٥- هناك شخصية كردية أخرى تسترعي الإهتمام في هذا المجال. هي شخصية محمد ضياء گوك ألب الديار بكر. هو ابن لموظف صغير في إدارة ديار بكر وگوك ألب. نشأ نشأة تركيّة بإحتقار طبيعي للمجتمع الكردي الريفي. أغرم في شبابه بمطالعة كتب عبدالله جودت وتراجمه من اللغات الأجنبية وبرز سياسياً وقومياً في مؤتمر الإتحاد والترقي المعقود في العام ١٩٠٩ وكان مندوباً عن ديار بكر فيه. وأنتخب عضواً في لجنة الإتحاد العليا. كتب الكثير عن القومية التركية. ولم يكن بين آثاره ما يدلّ على إنعطاف أو شعور بالقومية الكردية. ووصفت مساهمته في الحقل التركي بعد وفاته في ١٩٢٤ هكذا "خلقت افكاره حركة ثقافية وطأت للتوعية اللازمة للتغيير في =

على أن بعض الشخصيات الكردية البارزة في العاصمة شاءت الإعراب عن مساندتها للاتحاديين وحركتهم عن طريق الإعتراز بهويتها القومية عن طريق تأسيس عددٍ من الجمعيات الكردية لانعرف عنها إلا الأقل من القليل. إلا أن أولها وأبرزها كان جمعية (کردستان تعالي وترقي جمعيتي= جمعية كردستان للنهضة والتقدم)^(٦) من مؤسسها أمين عالي بدرخان والشيخ عبدالقادر النهري. والجنرال محمد شريف پاشا وهو بابائي من مواطني السليمانية مؤمن باللامركزية وواحد من خصوم الجون ترك

= العقلية الشعبية من فكرة إمبراطورية الى فكرة شعب. من اتجاه ديني الى علمانية. من شرق الى غرب". نقلاً عن Show, Stanford and Kural: History of The Ottoman Empire and Modern Turkey ج ٢: ص ٢٠٨. لندن ١٩٥٢.

هاجم جوك ألب نظام الأغوات في كردستان وأعتبر الإنقلاب العثماني الكفيل بالقضاء عليه ومما كتب في هذا الباب "ما أن يصطنع آغا القرية واحداً من أعضاء مجلس الإدارة مستخدماً طرقه الخاصة وفنونه في أصطناع أصحاب السلطة حتى يقوم بمساعدته بإعفاء الشبان الذين بلغوا سنّ الخدمة في الجيش من القرعة العسكرية في قريته والمجرمين من سوقهم الى ساحة القضاء وإنقاذ المتخلفين عن دفع الضرائب ومستحقات الإعفاء عن الأعمال من قبضة محصل الضرائب ويعيش عيشة أمر مستقل في نطاق قراه بفضل هذه الخدمات والوساطات ويجبي الاتاوات عن الجرائم والزيجات وحوادث الخطف ومنافع أخرى كثيرة غيرها. والقرويون الذين يتصورون بأنهم يدينون له بهذا، يدفعون المبالغ عن ضرائب الحيوانات بعين النسبة التي يدفعونها لمحصل الضرائب. ولكيلا يسمحوا لأي جاب في القرية ماعدا الأغا يصبحون منطوين على أنفسهم ويرتكبون جريمة اتهامات مزورة ويشهدون زوراً ويعملون كل ما هو ضروري".

٦- واجهت حكومة الإتحاديين وضعاً خطيراً في الخارج ففي ٥ تشرين الأول ١٩٠٨ أعلنت بلغاريا إستقلالها بدفع من روسيا. وبعدها بيومين أعلنت حكومة النمسا والمجر الضمّ الرسمي لمقاطتي بوسنينا وهزركوفينا [البوسنة والهرسك]. وبقي موقف كل من بريطانيا وألمانيا غير واضح. إلا أن بريطانيا كانت في حلف مع روسيا. والنمسا والمجر كانتا في حلف مع ألمانيا انعكس ذلك على الوضع الداخلي. وتحفزت الأحزاب الرجعية الموالية للسلطان للإنتفاض وخيبت أعمال الجون ترك ظن الليبراليين وأنتهز اعوان السلطان والرجعيون حيرة وبأس الحكم الجديد من معالجة الميول الانفصالية التي صارت محور أحداث المنتديات والاجتماعية ذات الطابع القومي. وأعلنت الثورة المضادة في نيسان ١٩٠٩ في استنبول ونجح القائمون بها بذبح عدد كبير من الإتحاديين هناك وتسلموا مقاليد الحكم. وعندما عجز السلطان عن معاقبة المجرمين استنجد الاتحاديون بالوحدات العسكرية التركية المربطة في مقدونيا فرجعت بقيادة محمود شوكت پاشا وهو چركسي الأصل بغدادي المولد والموطن. وسحقت الثورة المضادة وتمّ خلع السلطان [راجع وليام ميللر Willian Mieller: الإمبراطورية العثمانية وخلفاؤها ١٨٠١-١٩٢٧. مطبعة جامعة كمبردج ١٩٣٤ ص ٤٧٨].

- والداماد المشير ذوالكفل پاشا^(٧).

وقام آخرون بتأسيس جمعيات مماثلة في كل من ديار بكر وبتليس والموصل وبغداد. وأسست جمعية ثقافية في استنبول اتخذت لها عنوان (الجمعية الكردية لنشر التعليم) وفتحت مدرسة بإدارة وإشراف عبدالرحمن بدرخان: "لخدمة ثلاثين ألف صبي كردي في العاصمة استنبول" وباشرت عملها بإفتتاح مدرسة ابتدائية. ومن نشطوا فيها وإعتنوا بأمرها (السيد نورسي البتليسي) الذي أصاب شهرة في الأوساط الكردية في استنبول، كما نبّه اليه السلطة لكتابته حول ضرورة التمسك بالهوية الكردية واللغة الكردية. في العام ١٨٩٦ أثارت مقالاته سخط (عبدالحמיד) ورجال أمنه بل وشكّه في نواياه عندما تطرقت مقترحاته للإصلاح الديني الى الشعب الكردي بنوع خاص وإن لم يكن يُشَمُّ منها رائحة انفصالية مطلقاً. وقبل خلع السلطان عبدالحמיד في ١٩٠٩ ربما بأسابيع قلائل قدم له عريضة مقترحة فيها إرسال معلمين يحسنون اللغة الكردية الى كردستان لنشر الثقافة العامة العلمانية ومما جاء في عريضته: "من الأمور الأساسية إستحداث كادر تعليمي يحسن الكردية فهذا من شأنه أن يرفع مستوى رجال القبائل الكردية الفكري ويجعلهم مواطنين عثمانيين جيّدين" وطلب إدخال تغييرات على المدارس الدينية بتدريس العلوم العصريّة فيها وبجامعة شرقيّة على غرار جامعة الأزهر للتحصيل العالي.

لم يكن سيّد نورسي انفصالياً كما ترى. إلاّ انه وبعد مرور سنتين على الإنقلاب دعا الى إقامة حكم محلي في ديار بكر. ولم يكن هذا يروق بطبيعة الحال للإتحاديين ولم يكن يروق لهم أن يبقى سيد نورسي مرتبطاً بكتلة الإتحاد الإسلامي الذي اتّهم بصلوّه في محاولة الإنقلاب الحميدية المضادة في نيسان ١٩٠٩. وبقي كالشيخ عبدالقادر النهري مصراً على الوحدة العثمانية.

٧- يشير محمد علي عوني في حاشية (٤٠٤) على ترجمة لكتاب محمد أمين زكي «خلاصة تاريخ الكرد وكردستان من أقدم العصور التاريخية حتى الآن» الطبعة الثانية ص ٢٢٥ (١٩٦١). أن هناك جمعية كردية أقدم من هذه هي جمعية [العزم القوي الكردستانيّة]. مستنداً في ذلك الى رسالة تركيّة بعنوان (أمين بدرخان) أصدرها لطفي بإسم جمعية الأكراد في العام ١٣٢٠هـ = ١٩٠١م وطبعت في مطبعة إجتهد لصاحبها عبدالله جودة.

كان همُّ سيّد نورسي إنتشال شعبه الكُردي من وهدة الجهل والتأخر الحضاري. وفي ١٩١٠ أسس الطلبة الأكراد في استنبول جمعية أطلقوا عليها إسم الأمل الكُردي [هيفي كورد جمعيتي] ومن المؤسسين خليل خياليّ الموكتي (من موكت) وعمر وقدري من أبناء أسرة جميل پاشا زاده الدياربكري. وفؤاد تيمور بگ من وان، وزكي بگ الدياربكري وغيرهم واصلت هذه الجمعية نشاطها حتى نشوب الحرب عندما اضطرت الى تعليق عملها. إلاّ انها استأنفته بعد الحرب حتى استتظهار الكماليين وإحتلالهم استنبول ١٩٢٣. وكان لها جريدة إسمها (روژ كرد = يوم الكُرد) وكان ثمّ جمعيات أخرى ثقافية كردية زالت بقيام الحرب وعفي على اثرها.

وظهر عددٌ من الجرائد. منها جريدة باللغة التركية عنوانها (كُرت تيشون وترقي = التقدم والتعاون الكُردي المتبادل) أصدرتها جمعية بهذا الإسم. وتلك أول جريدة كردية النجار تصدر رسمياً بإجازة من السلطة الجديدة.

وإنتلقت جريدة (کردستان) من منفاها في بريطانيا الى استنبول وتولى تحريرها ثريا إبن أمين عالي بدرخان وبها بدأ التنافس بين البدرخانيين والنهريين. وأبى عبدالقادر أن يتخلّف فأصدر جريدته هه تاوى كرد (شمس الكرد). وهو لاشك يفوق البدرخانيين شعبيةً مقاماً ونفوذاً بدليل إسناد الإتحاديين اليه منصب رئاسة مجلس الدولة إضافةً الى عضويته في مجلس الشيوخ. وما كان البدرخانيون يستطيعون مطاولته في هذا لا في استنبول ولا في كردستان. إلاّ أن هذه المنافسة مالبت أن أسدلت عليها التطورات السياسية ستاراً.

قلنا كان التفاؤل عظيماً بالإنقلاب وشمل سائر أرجاء الإمبراطورية وتحالفت شعوبها على نسيان الماضي والعمل بإخلاص وائتلاف لبناء المستقبل إلاّ ان ذلك لم يتحقق. فما مرت مفاجآت الإنقلاب حتى راحت العناصر المعادية للجون ترك تعمل ناشطةً وتعاضمت قوى المعارضة بالنكسات السياسية في الخارج وسوء الإدارة والفضى ومواقف النظام المتغطرة المتعالية والعداية أحياناً من المجموعات العرقية والقومية التي زادت كثيراً من نشاطها السياسي وراحت تطالب بحريات أكثر وزحفت كلمة "اللامركزية" بتصاعد الشعور القومي. وكان تحدياً خطيراً للإتحاديين ومصدر قلق عظيم للجون ترك ومنهم تألفت الحكومة. كان الجون ترك يخشون أن تؤدي المطالبة باللامركزية إن عاجلاً أو آجلاً

الى المطالبة بالحكم الذاتي الذي سيتمخض فوراً بالتدخل الخارجي - إن لم يضعوا حداً للضرب على نغمة اللامركزية. وقد علموا من التجارب التاريخية الماضية أن كل تدخل خارجي يعقبه عادة خسارة أراضٍ من الإمبراطورية إما عن طريق الإلحاق أو الانفصال. وتلك هي خسارة بلغاريا والبوسنة والهرسك ماثلة، وهي أحدث من أن تُنسى. ما أن افلح الاتحاديون في القضاء على الثورة المضادة حتى قرروا القضاء على المعارضة بالتمام أجاأت من العناصر الليبرالية أو المحافظة أو القومية سواء بسواء.

الفصل الثالث

مأساة الشيخ سعيد البرزنجي. الريح القومية في جنوب كردستان. التقارب الكردي الأرمني. الأفكار القومية تغزو التكايا والمدارس الدينية. قيام الشيخ عبدالسلام البارزاني. مخطط باسكيشتش والتدخل الروسي.

الشيخ سعيد البرزنجي - شيخ الطريقة القادرية الصوفية والزعيم الروحي الذي لاينازعه آخر في المنطقة كان صديقاً للسلطان عبدالحميد. أعلن الثورة على النظام الجديد ما أن بلغه بعث الدستور وتحديد سلطة السلطان.

كان الشيخ قد لقي الحظوة عند السلطان بزعم مفاده أن دعاءه أستجيب لشفاء ابن السلطان المفضل. وقيل أنه كان مزوداً بتفويض من الباب العالي يخوله حق التصرف كما يريد وتكديس المال وحياسة الأراضي على حساب أهالي السليمانية. وقد ازداد قوة وجبروتاً بمصاهرته (الهموند) تلك القبيلة الشديدة البأس التي كانت قد إتخذت لها في حين من الزمن المهنة المضمونة الربح بنهب القوافل والمسافرين بين السليمانية وكركوك بعد عودة زعمائها من المنفى^(١).

١- إختمرت فكرة ترحيل الكرد وتوطينهم خارج كردستان في أواخر القرن التاسع عشر. فوقع الإختيار على قبيلة الهموند. وبدا ساحل تركيا الغربي الموضع الأمثل في مبدأ الأمر ثم إستقر الرأي على نقلهم الى ليبيا. كان هدف العثمانيين قطع دابر الثورات الكردية وماتسببه من متاعب وخسائر. وكانت هذه القبيلة على رأس القائمة المرشحة للنفي والتهجير وهي من أكبر القبائل التي تقطن حوالي السليمانية. قايلت السلطة ثوراتها العديدة بإرسال جيوش عثمانية كبيرة كانت تُمنى في أغلب الأحيان بهزائم مخجلة. وقد جاء تفصيل ذلك في كتاب (هنري فيلد) الموسوم (جنوب كردستان: دراسة أنثروپولوجية) الذي نشرت دار آراس ترجمتنا العربية له (الطبعة ٥٢-٥٥). لاسيما إنتفاضة العام ١٨٩٠ الكبرى التي أفلحت الجيوش العثمانية في سحقها. إقتصر هذا الكتاب على تفاصيل عودة هؤلاء المحاربين من المنفى عنوة إلا أنه لم يتطرق الى قصة إبعادهم الى ليبيا وعودتهم منها. وهي في الواقع ملحمة درامية ساعدتنا على تعقيب وقائعها=

وتخوفاً من قيام الإتحاديين بعملية "كنس وتنظيف" أعلن الشيخ سعيد ثورته ضدّ "الدستور الكافر" بتشجيع وتشويق من الهموند الذين كانوا قد إنطلقوا خلال سنتين

= دار المخطوطات التاريخية بطرابلس الغرب عاصمة ليبيا الحالية. ففيه ملف خاص بالمنفيين الأكراد يتضمن وثائق على غاية من الأهمية ويستفاد منه ان ترحيل الهموند الى ليبيا تمّ على عهد ولاية (أحمد راسم باشا) في طرابلس الغرب وهذا الوالي بقي يحكم ليبيا مدة طويلة نسبة الى بقية زملائه (١٨٨٢-١٨٩٦). ويظهر من الوثائق بأنه هو الذي إقترح على حكومة استنبول العملية، مبيناً إستعداده لتوطين أسر كردية تتراوح بين ١٠٠ و ٢٠٠ "على أن تقوم استنبول بتقديم مايلزم لها من المؤونة واليدور اللازمة للزراعة في السنة الأولى على الأقل". يعلق صاحب كتاب المشروع الصهيوني لتوطين اليهود في ليبيا (الدار العربية للكتاب. طبع ليبيا- تونس ١٩٧٥، ص ٢٥ من تأليف مصطفى عبدالله بعبو) : "وبهذا إتخذت حركة التوطين شكل النفى والأكراد معروفون بصلاية عودهم وحبهم لبلادهم وطبيعتها الجبلية، ولهذا كانت المحاولة إعتداءً عليهم وظلماً فادحاً". وافقت الحكومة العثمانية على مقترحات أحمد راسم باشا وأرسلت عدداً من الأسر الهموندية الى طرابلس منهم بعض الزعماء الكرد الذين يمثلون خطورة على الدولة وكانت قد إحتفظت بهم في منطقة ازمير على ساحل الأناضول الغربي. كما أرسلت مجموعة أخرى الى بنغازي لغرض توطينهم في الجبل الأخضر. إلا أن مجموعة طرابلس رفضت معارضته حكومة الولاية من توطينها في منطقة (سرت) لتقوم بفلاحة الأرض وزراعتها بعد ان تعهدت حكومة الولاية بتقديم كل مايلزمها من بذور وصرف الأموال اللازمة للحياة الجديدة ومنها تخصيص قرش صاغ تركي واحد لكل فرد من أفراد الأسرة المهجرة يومياً. وبعد رفضهم قبول المشروع الزراعي- حاول (أحمد راسم باشا) حلاً آخر. فسعى الى إلحاق العزّاب منهم بالقوات النظامية والقوات البحرية في السفن العثمانية المرابطة في الموانئ الليبية. كما ألحق بعضهم بقوة الدرك والأمن. لكنهم رفضوا وطالبوا بالعودة الى ديارهم بإصرار، مما دفع الوالي الى أن يكتب الى حكومته، معلناً فشله في سائر محاولاته لإقناع المهجرين بقبول الحياة الجديدة وعلل ذلك بقوله: "إن جماعة سرت ليست من الفلاحين الذين يعتمدون في حياتهم على الزراعة، بل هي من القبائل التي تعودت التنقل والترحّل بكل مايصاحب ذلك من المظاهر والممارسات الإجتماعية الخاصة بها ومنها عدم الإرتباط المطلق بأرض معينة". ولم ينس هؤلاء موطنهم الأصلي، وبلغ التعلق بها حداً أن دفع بعض زعمائهم "بقيادة محمد آغا سليمان. ورشيد فتاح. وعبدالقادر حسين بك. وحسين علي. ومصطفى كامل حسن بك. وكريمي فتاح- ذلك الذي أسهم بدور بارز في الأحداث العنيفة بكردستان العراقية كما سيرد ذكره) الى الهروب متخذين سبيلهم شرقاً. إلا أن قوات الولاية أدركتهم وتبادلت وإياهم إطلاق النار. وقبضت عليهم وصادرت أسلحتهم وقتل كبيرهم حسين بك. هذا وقد تمّ إستجوابهم في ١٩ ذي القعدة من العام ١٣١٠هـ. وأسقط في يد الوالي. ويُس من محاولة دمجهم في المجتمع الجديد والرضى بالواقع، فإضطر في العام ١٨٩٣ الى الكتابة للسلطة طالباً إخلاءهم. وحصل على موافقة الحكومة فأعيدوا الى إزمير ومنها =

ماضيتين يعيشون في الأنحاء نهباً وسلباً. ولم يكن لدى السلطة القوة العسكرية لمواجهة (الهَمَوْنْد). فأخذت بأسلوب الملاينة وأقنعت الشيخ سعييد بالمجيء الى الموصل للتفاوض. فأقبل في آذار ١٩٠٩ بصحبة إبنه وعدد من الأتباع وفيها قُتل بدسياسة. وسواء في الأمر أكانت السلطة وراء الحادث أم انه كان وليد صدفة. فقد أحدث مقتله مع أحد أبنائه غلياناً في السليمانية، حمل إبنه الشيخ محمود الذي نجا - على رفع السلاح مع حلفائه الهَمَوْنْد وبقيت المنطقة تعج بالإضطرابات والأعمال اللاقانونية ردحاً من الزمن وحصل عصيان مسلح مماثل في جنوب غرب كردستان تزعمه ابراهيم پاشا زعيم إتحاد قبائل الملي. كان هذا الزعيم القبائلي برتبة (مير ميران = أمير الأمراء) في الآلايات الحميدية. وعلى إثر خلع السلطان عبدالحميد زحف على دمشق بألف وخمسمائة مسلح واحتلها بإسم السلطان. إلا أنه أرغم على الإنسحاب بسرعة نحو مقره في ويران شهر^(٢) لم تكن هذه الإرهاصات ذات محتوى قومي.

لم يخلُ حكم الإتحاديين إذ ذاك من إيجابيات. فبخصوص العلاقات القومية شعر الريف الكردي كالريف الأرمني بقدر كبير من الأمن والسلام والإنتفاخ الإقتصادي لم يعهده الشعبان من قبل وأدّى جو الحرية النسبي الى تقارب بين مشقفيهما وصدور تصريحات من الجانبين حول التآخي والتآلف ووحدّة المصير. وكان ذلك مصدر قلق للإتحاديين. فهذا الصفاء والتقارب بين قوميتين متجاورتين كان يمثل لهما تهديداً لحدود الإمبراطورية الشرقية. وهو ليس من قبيل الخيال في الواقع ولا أضغاث أحلام. كانت هناك دلائل وإشارات تدعو الى هذا الخوف. ومن ذلك مثلاً أن الشيخ عبدالقادر النهري أقدم في خريف العام ١٩٠٩ على القيام بجولة في أنحاء شمدينان. وعمل وهو رئيس

= قاموا بعملية العودة الشهيرة الى وطنهم.

(إعتمدنا في هذه الخلاصة على (١) الملف الكردي المرقم ٢٧١٩. دار المخطوطات التاريخية في طرابلس الوثيقة المؤرخة في ٢٩ تشرين الثاني ١٣٠٧ هـ. حسن كاكه حسين حيدر/هماوند مهاجرون) وكتاب (أحمد صدقي الدجاني الموسوم "ليبيا قبل الإحتلال البريطاني أو طرابلس الغرب في آخر العهد العثماني ١٨٨٢-١٩١١". المطبعة الفنية الحديثة- القاهرة ١٩٧١ ص ٦٠) وأخيراً كتاب (أنطوني.ج. كاشيا: ليبيا تحت الإحتلال العثماني الثاني ١٨٩٥-١٩١١ ص ١٩٥. Antony J. Cachia: Libia Under The Second Ottoman Occupation).

٢- قتل ابراهيم پاشا الملي في منطقة جبل عبدالعزيز في أثناء إشتباك له مع رجال من قبيلة شمر أرسلهم الجون ترك لتهديد إنسحابه من غارته على دمشق.

مجلس الدولة على عقد مؤتمر كردي - أرمني، والقي فيه خطبة. أكد فيها إخلاصه للاتحاديين وتمسكه بمبادئهم إلا أنه أقلق بالهم عندما تطرق فيها الى العلاقة بين الأرمن وبين شعبه الكردي إذ قال:

"علينا أن نعيش مع الأرمن كاخوة. علينا أن نعيد لهم تلك الأراضي التي يدعون بها والتي لم تتم استعادتها بعد. وسنعمل معاً على تقوية التفاهم والاتحاد مع إخواننا العثمانيين الآخرين".

وذكروا انه عقد اجتماعات خاصة مع الزعماء المحليين.

وأعتقل حال عودته الى استنبول.

وفي خريف العام ١٩١٠ مرّ (سيد نورسي) بدياربكر خلال جولة له. واجتمع بوجهاء المدينة وملتعليميها وتحدث اليهم وخطب فيهم متخذاً جانب الحبيطة في تأكيد ولائه للاتحاديين عندما حضّ الكرد على الوحدة وعلى دفن خلافاتهم:

"كردستان تعود للكرد والأرمن وليس للترك. والوحدة هي من أعظم المهام في الوقت الحاضر. والحبّ والمودة هو الأصل والطبيعة الملازمة لتلك الوحدة. انه لمن الممكن إقناع غير المسلمين بأن وحدتنا تمثل هجوماً على أمراض ثلاثة: الجهل والفقر والشقاق".

* * * * *

إتخذ نشاط القوميين الكرد وفعاليتهم خلال كردستان إتجهاً جدياً بانتشار الافكار القومية التي تبثها سراً الجرائد والمطبوعات فضلاً عن اللقاءات الشخصية. وباتت الشائعات والأنباء ذات الطابع القومي والسياسي مدار الأحاديث في المجالس والاجتماعات الخاصة ومن المواضيع المحببة.

لم يكن بالأمر اليسير عليك أن تعمل على غرس أفكار محظورة وغريبة في شعب سادته الأمية، ومزقته أشتات من الولاءات والانتماءات المختلفة المتناقضة وغير السليمة. المصاعب التي واجهها القوميون الكرد لم تكن هيئة مطلقاً. والمخاطر الناجمة من الدعوة كبيرة. ومما ذكره صديقنا الراحل محمد صديق الديمولوجي الذي عاصر تلك الفترة إن بعض أولئك الذين كانت تصلهم المطبوعات السرية يعمدون الى تسليمها للسلطة تأكيداً لولائهم أو خوفاً من الوشاية بهم. ويستدرك ليقول كان هذا عملاً

إعتيادياً ورائجاً أو ربما كان مبعثه حبّ الذات أو الإفتقار الى الشعور القومي فمما لاشكّ فيه أن بعض هؤلاء قد يرون النشاط في الحقل القومي نوعاً من التحريض والإثارة الخيانية ضدّ السلطة الشرعيّة. أي الخليفة السلطان والدولة الإسلامية.

مع هذا كلّ فقد وجدت الأفكار القوميّة لها منتجعاً. وشقت طريقها الى التكايا ورباطات الصوفية ولقيت مساندين أقوياء من شيوخها. ذلكم هو تحوّل عظيم الخطورة في تاريخ الوعي القومي الكردي. وخطورته تكمن في الآراء والأفكار التي تصدر من تلك الخانقاهات والتكايا تأخذ عادة صيغة الوصيّة والأمر فتلقّى قبولاً وطاعة فوريتين. وتلك التي تخرج من افواه العلماء ورجال الدين المحترمين مكسوة بطابع المعرفة والعلم لاشائبة تشوب أصحابها خلقاً ومقاماً. زد على هذا تلك العصمة النسبيّة التي يمنحها الطابع الديني والمشيخي للتكية فيجعلها في مأمن من تدخل السلطة وملاحقتها.

والشيوخ كطبقة يمثلون وجهاً هاماً من أوجه النخبة الكرديّة. وجدنا معظمهم قوميين متحمسين لقوميتهم بعكس الوجهاء أو الشخصيات البارزة من الكرد الحضريين المتتركين. فهم على صلة وثيقة بالجماهير الكرديّة، وهم بالعقيدة وبالدراسة يقفون في صفّ الدولة الإسلاميّة التقليديّة ضدّ الدولة العلمانيّة الحديثّة. وهي عندهم اليوم "حكومة الجون ترك"، فالיום هم لا يثقون بالحكام الجدد في استنبول، كما كان خلع السلطان عبداً الحميد سبباً في النقمة عليهم. كان هذا السلطان يخصّ الكرد والاسلام بعطف فهو بنظرهم الخليفة والسلطان المثالي. ولذلك وضعوا أنفسهم من البداية في خندق معارضي النظام الجديد سياسياً ودينياً.

ومع أن أغلبية الشيوخ كانوا يعطفون على دعوى القضية القومية الكرديّة. إلاّ انهم لم يكونوا مستعدين للجهر بما يكتّون لها ولدعاتها. ولم يجدوا في أنفسهم الجرأة على اظهار حقيقة مشاعرهم، بخلاف أولئك الذين وجدوا أنفسهم على درجة من القوة والحصانة للتعبير عن مساندتهم للقوميين الى حدّ المساهمة بشكل علني في نشر الوعي القوميّ والجهر بطلب الإصلاح. والى جانبهم فريق آخر لا يجد لديه القوة والمركز للإفصاح عن مشاعره إلّٰتزم جانب الحذر، وفضل عدم المخاطرة بالنفس. هؤلاء باتوا يتربصون ويأملون في أعماق قلوبهم نجاحاً للدعوة القوميّة.

وخير ما يمكن أن نوردّه مثلاً للتعبير عن نفوذ الآراء القوميّة وسلطانها على فكر الشيوخ السياسي، تلك البرقية التي بعث بها الى الباب العالي والبرلمان العثماني في استنبول عدد من كبار الرؤساء الكرّد والشيوخ في إقليم بهدينان بزعامة الشيخ عبدالسلام البارزاني والشيخ نور محمد البريفكاني بُعيد انقلاب ١٩٠٨. بعث بها الموقعون من دھوك الى الاستانة.

هذه البرقية تقوم دليلاً لا يظاله دليل على تغلغل الأفكار القومية ومدى نفوذها ووصولها الى شيخ صوفي في مجاهل جبلية عاصية بعيدة جداً عن مراكز صنع القرار. بل كيف أقع بضعة وعشرون من رؤساء العشائر تلك المنطقة وأغواتها بوضع تواقعهم الى جانب هذين الإثنين.

أجملت تلك المطالبات بسبع مواد هي (الأولى) أن تكون اللغة الكرّدية، اللغة الرسميّة في أفضية الزيبار وعقره ودهوك والعمادية وزاخو. (الثانية) أن تكون اللغة الكرّدية لغة التعليم الى جانب اللغة التركية. (الثالثة) أن يُختار القائمقامون ومدراء النواحي من الموظفين الذين يحسنون اللغة الكرّدية. (الرابعة) طالما بقي الإسلام دين الدولة فالأحكام يجب أن تصدر وفق الأصول الشرعية الإسلامية. (الخامسة) يعين لمنصب القضاء والإفتاء في عموم المنطقة الكرّدية علماء ينتسبون للمذهب الشافعي وهو المذهب الذي يتبعه أغلبية الكرّد. (السادسة) الضرائب تستوفي من الموظفين بمقتضى أحكام الشريعة فقط وتلغى الضرائب الأخرى وبينها ما يخالف الأحكام الشرعية. (السابعة) الضرائب التي تجبى مقابل الإعفاء عن القيام بالأعمال، تبقى نافذةً شريطة أن تنحى جانباً وتخصص لصيانة الطرق بين الأفضية الكرّدية الخمسة المشار اليها.

مما يؤيد نفوذ الأفكار القوميّة الى مناطق واسعة من كردستان. قيام الموقعين بارسال نسخ من هذه البرقية الى كلّ من الشيخ عبدالقادر النهري. وأمين عالي بدرخان والجنرال شريف پاشا ابن سعيد پاشا السليمانلي. وهؤلاء أعضاء في جمعية [تعالى وترقي الكرّدية] التي تأسست عقب اعلان الدستور^(٣).

٣- يذكر الديمولوجي في حاشية له أن الشيخ عبدالسلام أصرّ على أن يعطى هؤلاء الذوات نسخة من البرقية خلافاً لرأي الموقعين الذين أرادوها برقيةً رسميّةً بحتة (راجع إمارة بهدينان الكرّدية أو =



الشيخ عبدالسلام البارزاني يتوسط الجالسين

لم يكن في هذه البرقية ما يوحي بفكرة إستقلال أو دعوة إلى انفصال أو مطالبة بحكم ذاتي. إلا أن الإصرار على الجانب اللغوي في تلك المطالب. واللغة هي ركن الهوية القومية الأساس، دق جرس الخطر في أذن الجون ترك. وأنزلت هذه البرقية منزلة تمرد وعصيان وجب سحقه بالقوة لاسيما بعد خروج هؤلاء من معركتهم مع حزب السلطان (الحركة المضادة) في ١٩٠٩ ظافرين.

*** *** ***

تصاعدُ الغليان القومي والنفور الكردي من ثقل يد الجون ترك الباطشة كان موضع إهتمام من روسيا القيصرية عدو العثمانيين الأذلي. ما كان في وسع ساسة الروس غض الطرف عنه ومنذ مطلع القرن العشرين وهم يتابعون بإهتمام عظيم تصاعد شكوى أكراد السلطان ونبطت لديهم فكرة جرّ الكرّد الى الخندق الروسي بالعمل على كسب ثقتهم. بدرجات متفاوتة من النجاح. وقد نجحت الآنسة كسيرترود بل أيما نجاح في تصوير الأسلوب الروسي بتركيز وإختصار:

= إمارة العمادية) الطبعة الثانية. أبريل ١٩٩٩ ص ٨٧.

"ليس بالإمكان إعطاء تحديد واضح لموقف القبائل الكردية حيال روسيا قبل الحرب وعلى طول الحدود التركية الروسية. لكن يمكن القول على العموم بوجود شكٍّ جوهري عند الروس في موقفهم نتيجة تردد الكرد في الإستجابة الى محاولات تقربهم منهم. سوء الحكم العثماني كان يدفع الكرد وهم كارهون مرغمون وخلافاً لرغبة فيهم - الى أحضان روسيا. وبناء على هذا فقد لجأ اليهم رؤساء من منطقة الموصل مثل شيخ بارزان الذي أضطر بالخير الى اللجوء الى الأراضي الروسية بعد إمتناعه عدة سنوات عن قبول الدعوة الروسية. وفي ربيع العام ١٩١٤ أشيع بأن الهموند والجاف والدزني بعد بأسهم من تحقيق الإصلاح المنشود من الحكومة العثمانية أبدوا إستعدادهم لطلب المعونة من روسيا"^(٤)

ويتجلى الحضور الروسي في هذه الفترة. في كل من ثورة الشيخ عبدالسلام البارزاني والعصيان المسلح في بدليس.

ربما كان شيخ بارزان (عبدالسلام) أقوى وأخطر زعيم كردي واجهته الحكومة العثمانية خلال الفترة (١٩٠٨-١٩١٤).

٤- G. Bell: Review of the Civil Administration of Mesopotamia 1914-1920 London H.M Stationary of 1920. "استعراض للإدارة المدنية في ميسوپوتاميا ١٩١٤-١٩٢٠. طبعة رسمية.

ينوه الدكتور حسن الجاف في مقال له نشرت في مجلة المجمع العلمي الكردي بإسهام كبير لزعماء قبائل الجاف (البكراده) وبشخص الزعيم الأكبر «محمود باشا» وأولاده في الحركة القومية الكردية في مطلع القرن العشرين. وإرتباط محمود باشا بجمعية الإتحاد والترقي أيام كان في استنبول وبالمخصوص علاقته بالشيخ عبدالقادر النهري ومما قاله في هذا الصدد نقلاً عن والده كريم بك: «ان محمود باشا (بعد هروبه من استنبول) كتب في (باكو) رسالة وجهها الى قيصر الروس طالباً منه المساعدة للقيام بثورة كردية في العراق لكنه لم يتلق رداً. فما كان منه إلا أن غادر باكو الى ايران بسفينة أقلته الى بندر انزلي في (قزوين) فخرج لإستقباله أخوه فتاح بك وعاد الى العشيرة في حين صدر عبدالحميد لكل من والي بغداد ووالي الموصل أمراً بإعتقاله». كما يعزو الكاتب نقلاً عن رواية للشاعر (بييره ميرد) أن محمود باشا: "دعاني وكان في دار ابنه كيخسرو بك وطلب مني إعداد بيان ودستور ادارة لحكومة كردية" فأظهر الشاعر تحفظه وتمنعه موضحاً إستحالة جمع كلمة الرؤساء والزعماء لتنافسهم على الزعامة. كما ذكر أن الأمر بالقبض على محمود باشا ألجأه الى الإعتصام بجبل زمانكو حيث كانت تطارده قوة بقيادة (كريم بك خانزاده جواني) السليماني. وذكر الكاتب أحداثاً أخرى تتعلق بإسهام بكراده الجاف في حركات الوعي القومي. لم يسعنا الإفادة منها كثيراً لأنها تغفل ذكر السنين وتثبيت الأحداث حولياً.

كانت خصومة الشيخ مع (الجون ترك)، قمة النزاع المستحكم بين شيوخ بارزان وبين السلطات العثمانية. وقد بدأت بإصرار شيوخ بارزان على بسط سلطانهم في منطقة بارزان - زيبار، في الوقت الذي أتمت الحكومة العثمانية القضاء على الايالات (الإمارات) الكردية شبه المستقلة في السليمانية بأمرائها البابانيين وإمارة سوران في رواندوز وإمارة العمادية في بهدينان.

فجح شيوخ بارزان في تحقيق الغلبة على أعدائهم والطامعين فيهم، بمقاتليهم الأشداء (المريدين) وطاعة هؤلاء العمياء وولائهم المطلق. حتى انهم كسبوا من الخصوم الشامتين بهذا الإخلاص - لقب (ديوانه) أي المجذوبين.

وساق لنا الكتاب أسباباً عديدة للصراع الذي نشب بين الشيخ عبدالسلام وحكومة الجون ترك. فالدملوجي يعزوه الى مؤامرات أغوات الزيبار ودسائسهم وتحريضهم. فبعد أن مُنوا بإندحار شنيع في ساحة القتال، لجأوا الى الدس والوقيعة عند الحكومة المحلية وبتعاون ومساندة الموظفين الإداريين في المنطقة الذين كانوا يصورون لمراجعهم العليا في تقاريرهم البارزانيين بالعصاة الخارجين على القانون، وقد يحلو لهم أن يضيفوا سبباً آخر حول مايشيع عنهم جيرانهم الخصوم من ممارسات دينية شاذة. ولا يمكن إغفال حجة أخرى قد تكون أكثر وقعاً هي إمتناع القبيلة من دفع الضرائب المجحفة وغير العادلة فضلاً عن تنامي الشعور القومي الذي عبرت عنه برقية دهوك.

ويعزو (ويگرام) الإحتكاك الى محاولات العائلات البارزة صاحبة النفوذ في الموصل تأليب السلطة بمؤامرات ومكائد بغية بسط يدها على القرى الكردية وإنزاعها من أصحابها الشرعيين. ويضرب مثلاً بـ(محمد پاشا الصابونجي) الذي كان يعمل بإستخدام موظفي الدولة - على امتلاك عدد من القرى البارزانية. وإصرار الشيخ عبدالسلام على الوقوف ضد هذه المحاولة. وبسبب موقفه تمّ تنظيم لائحة اتهام مزيفة تعزو الى الشيخ جريمة التآمر على السلطة الأمر الذي أدّى الى تجريد حملة عسكرية ضده في العام ١٩٠٩^(٥).

ويعزو معروف جياووك^(٦) الأمر الى محاولة السلطة القيام بإحصاء عام للسكان

٥- تراجع ترجمتنا لكتاب «مهد البشرية: الحياة في شرق كردستان» الطبعة ٣. أربيل ٢٠٠٠.

٦- «مأساة بارزان المظلومة». ط. بغداد ١٩٥٤. ص ٥٥ وما بعدها.

والمواشي في منطقة بارزان عارض فيه الشيخ والناس هناك معارضةً شديدة، مما دعا الحكومة الى محاولة فرضه بالقوة أي بتجريد حملة عسكرية.

وعليّ أن أضيف هنا عاملاً آخر للعداء الذي إستحكم بين أغوات الزيبار وبين شيوخ بارزان فدفعهم الى تدبير المكائد والدس عليهم بعد أن عزّ عليهم نصر في ميدان القتال. فقد ظلت بارزان وتكية الشيخ فيها أبداً - مؤثلاً وملاذاً للفلاحين والقبائليين الزيباريين المستهدفين لظلم أسيادهم وإستغلالهم، حيث يجدون هناك حسن المعاملة والحماية. كان أغوات الزيبار يعتقدون وبحقّ أنّ شيوخ بارزان يفسدون عليهم رعاياهم ويسحبون البساط من تحت أرجلهم بمواقفهم تلك.

أصدر الفريق محمد فاضل پاشا الداغستاني قائد القوات العسكرية في ولاية الموصل والوالي بالوكالة أمراً للشيخ عبدالسلام بالحضور للإجابة عن التهم المعزوة اليه. فإعتذر الشيخ عن القدوم الى الموصل "لأشغال خاصّة". فرحف الفريق على رأس قوّة تتألف من ستة آلاف عسكري نظامي وغير نظامي (باش بزق) بينهم مرتزقة وجرت معارك عنيفة ألحق الشيخ خلالها بالحملة خسائر جسمية إلاّ أن القوّة العددية كانت لها الأرجحية بالأخير. وأحتلت قرية بارزان ودُمّرت تكيّتها وقُتل فقي عبدالرحمن قائد القوّة البارزانية. وهرب الشيخ عبدالسلام وقُبض على أسرته. ولاذ هو بجبال حكاري متخفياً حيث لجأ الى قبيلة التباري الآشورية.

أُسندت الى ناظم پاشا والي بغداد الجديد- ولاية الموصل وكالة. وكان من الإداريين الأتراك القلائل الذين إمتازوا بالذكاء وروح العدالة فإتبع سياسةً جديدةً لم يسبقه فيها والٍ آخر. سياسة الإسترضاء والملاينة والتعامل على أسس العدالة. ولم يقتصر له زمن كثير ليدرك سخف التهم الموجهة لشيخ بارزان ويادر بإلغاء التهم عنه وإعادته الى تكيّته ومنحه تعويضاً على الأضرار التي لحقت به وبقومه جراء الحملة التأديبية.

والظاهر أن العقيد (صفوت بك) الذي كان يعطف كثيراً على الشيخ ويدرك أسباب التحامل عليه - كان قد قام بدور هام في هذه المصالحة. ولقي الشيخ أيضاً عطفاً وتفهماً من الفريق (أسعد پاشا الدرزي) قائد الفيلق الثاني عشر الذي أشغل لفترة وجيزة منصب والي الموصل وكالة. فقد أوصى بأن ينعم على الشيخ (بالوسام المجيدي من الدرجة الثالثة).

كلّ ذلك كان فيما يبدو بمثابة هدنة قصيرة الأمد. فما مرّت أشهر قلائل على ترك الشيخ عبدالسلام حكاري وإستقراره في قرية (مام شقان) في منطقة مزوري ژيري. حتى أستدعي ناظم پاشا الى استنبول. وعاد محمد فاضل پاشا وكيلاً للوالي فبعث يطلب من الشيخ ثانياً الحضور في قرية بارزان. وعندما أشار الشيخ الى الخراب الذي أحدثته حملة هذا العسكري في القرية ومنها تدمير منزله. مشيراً الى صعوبة العيش فيها - أجاب الداغستاني بحملة تأديب ثانية. وفي مضيق (باب شقان) أوقع مريدو الشيخ بالحملة هزيمة ساحقة ووقع فوجان منها في الأسر فضلاً عن الخسائر الجسيمة التي منيت بها الأفواج الأخرى.

أطلق الشيخ سراح الجند وبعث برسالة الى السلطة يعرب فيها عن ولائه منكرأ أي تهمةٍ وراجياً تنحية الداغستاني. وإضطرت الحكومة الإتحادية بمساعي العقيد صفوت بك الى الإستجابة ونحّت الداغستاني وأسقطت التهم المسندة اليه ثانيةً.

ما إن عاد الداغستاني الى بغداد حتى توجه الشيخ الى بارزان وإنشغل بإعادة بناء منزله وتكليفه المهتمتين. وأسرع بتأسيس مدرسة لتعليم الصبيان. واجيب طلبه فوراً بتعيين معلم لها أرسل من الموصل على جناح السرعة.

في خلال السنتين التاليتين (١٩٠٩-١٩١١) بدت علاقة الشيخ بالحكومة والجوار على أفضل حال. وزار الموصل وإجتمع بالوالي وتعاون مع السلطة في حفظ الأمن وتطويع بعض القبائل الكرديّة التي تحدّت سلطة الحكومة وعبثت بالنظام باعتداءاتها على القرى وشنّ الغارات عليها بقصد النهب والسلب.

على أن ماكان يقلق استنبول من الشيخ هو علاقته الصميّة بدعاة الإصلاح الكرّد. ولاسيما علاقته الحميمة جداً بالشيخ سيد طه الثاني الشمديناني^(٧) الذي كان نشاطه مصدر توجّس عظيم للإتحاديين. فبعد زيارة قام بها هذا الشيخ النقشبندي لروسيا. إتخذ لسكانه قرية (راژان) في كردستان الفارسية. وكانت في حينه ضمن البقعة التي يحتلها الجيش الروسي واضعاً نفسه تحت حمايتهم بالفعل. فلم يكن ثمّ مصدر للعجب

٧- عن العلاقة الروحية والتاريخية التي تربط بين هذين البيتين النقشبديين راجع كتابنا "مبحثان على هامش ثورة الشيخ عبيدالله النهري"، الطبعة الثانية، أربيل ٢٠٠١.

من أن ينظر الإتحاديون الى العلاقة الصميمة بين الشيوخ بمنظار الشك العظيم. ولم يكن مصدر عجب أن صدرت الأوامر من استنبول بمراقبة نشاطهما بدقة. ويجب الإقرار هنا أن بعض الرسائل المتبادلة بين الإثنين التي وقعت في يد السلطة. كانت ذات طابع (خيانى) بالنسبة الى الإتحاديين. ففي واحدةٍ منها. راح الشيخ عبدالسلام يحث صديقه على إتمام علاقته الطيبة بروسيا والتمسك بها ومما جاء فيها: "الترك لا يمكن الثقة بهم. وسيأتي ذلك اليوم الذي يحتاج فيه الكرد الى مساندة قوية. ومثل هذه المساندة سيكون مصدرها حتماً الروس"^(٨)

والعقيد صفوت بك نصير الشيخ المتحمس وهو كردي النجار لا يُعدم شعوراً قومياً. وكان قد سبق وحذّره من غدر الترك بل كان ناصحاً لعدم الإستجابة لدعوة الحضور الأولى الى الموصل. بل وبلغ الأمر به أن حثّه على سلوك سبيل السيد طه شمدينان والأمير عبدالرزاق بدرخان^(٩) باللجوء الى الروس. ويظهر أن السلطة بدأت تشك في تلك الرابطة التي أحكمت أوامرهما بين هذا الضابط وبين الشيخ عبدالسلام وربما شعر هذا بنية السوء التي تُبيّت له. إذ مالبت ان عبر الحدود هو نفسه ولجأ الى الروس.

لم يقتض وقت طويل للإتحاديين ليكونوا على معرفة بهذا وشعروا بأن الوقت أوف لمعالجة الوضع بحزم دون تأخير. وانتدبوا له إتحادياً متعصباً للجون ترك وسياستهم بشخص الوالي الجديد «سليمان نظيف بك»^(١٠). ما أن إستقر به المقام حتى أرسل

٨- هذا المبحث حصيلة مصادره عدة. إلا اني مدين بالكثير منه لمقال كتبه الباحث والمستشرق الكبير بازل نكيوتين في العدد ٢٣٠ للسنة ١٩٢٥ (ص ١٥٤ وما بعدها) من مجلة بعنوان Li Asie Francaise Les Kurdes Racontes Par Eux Meme.

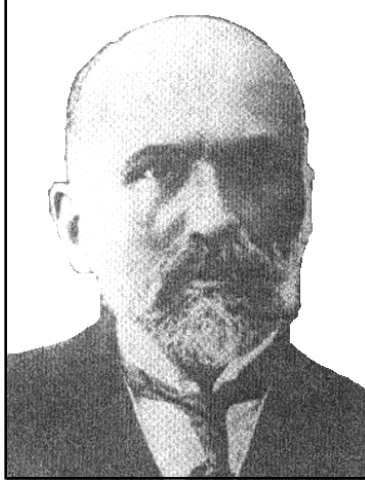
٩- هو ابن محمد نجيب پاشا بدرخان وحفيد الأمير بدرخان الكبير. كان في استنبول عندما أُتهم علي شامل پاشا عمّه في ١٩٠٦ بصلوغة في إغتيال رضوان پاشا رئيس بلدية أسكودار. فتم نفيه مع عمّه الى طرابلس الغرب.

١٠- حياة هذا الإداري العثماني مجموعة من متناقضات وتحولات حادة فجائية لا يجمعها ولا يربطها رابط غير طبيعة قلقة تدفع صاحبها الى اقتراف شر الأعمال واللجوء الى أشد الإجراءات قسوة. وأحياناً الى أنبل التصرفات وأكثرها نفعاً. اسمه الأصلي وندكار (سليمان نظيف) هو لقب إضافي اتخذته لنفسه فيما بعد ونبذ الاسم الكردي الذي تسمى به وهو كردي أمماً وأباً من ديار بكر مسقط رأسه (سكن إزمير بعد تقاعده) ولد في العام ١٨٦٨ الإبن البكر لإداري كبير في الحكومة العثمانية يدعى سعيد پاشا أحد الولاة العثمانيين وإتجه الى الكتابة وقرظ الشعر في =

بإستدعاء الشيخ عبدالسلام الى الموصل. وعندما رفض هذا أعلنه الوالي خارجاً على القانون ووجّه حملة عسكرية الى بارزان معززة بآلاف من المرتزقة. ودامت المعارك والإشتباكات شهراً من الزمن إتسمت بالعنف وقتل جراًها عدد كبير من الجانبين. وبالأخير هزم الشيخ وهرب الى أورميه ليقيم ثمّ علاقة بالروس. وبثّ سليمان نظيف عيونه وأرصاده ووضع جائزة على رأسه. وفي أوائل العام ١٩١٤ أثناء ماكان الشيخ

= مطلع شبابه وإنضم الى الإصلاحيين الدستوريين وألّفى نفسه عضواً متحمساً في جمعية الإتحاد والترقي السريّة. وأضطر الى ترك وظيفة إدارية ذات مستقبل وهرب الى أوروبا وإنضم الى الحركة المعادية للسلطان. وعاد بعد الإنقلاب ليرسل والياً للموصل في تشرين الثاني ١٩١٣. وكانت مدة ولايته فيها سنة واحدة وشهراً واحداً، لينقل بعدها والياً لبغداد. وفي الموصل أقدم على جريمته النكراء متحدياً القانون على نحو ما جاء في المتن.

بدأ هذا الرجل بإزاء تعصبه للإتحاديين وتنكره لهويته القوميّة، بكل المؤهلات العقلية التي لا تتاح لغير قلة - نموذجاً لشخصية شاذة حصيلة التعصب لفكرة وقد وجدنا منها نحن الذين أدركنا الجهود الأولى من حياة المجتمع العراقي - نماذج غريبة أدعأها الى التأمل والزراية أولئك الذين كنّا نعرفهم بأنهم نازيون أكثر من هتلر. ووجدنا مؤخراً بين الكرد متحمسين للبعث أكثر من عفلق والتناقض الذي أشرت اليه يكمن في واقع كونه معدوداً بين الشعراء الترك المجيديين والكتاب المبرزين باللغة التركية. ولم يؤثر عنه أنّه إهتم بكتابة شيء باللغة الكردية. ولا اتفق أن تحدث بلغته الأم التي تلقّاها وهو رضيع. ذكر له الكاتب العراقي الأستاذ مير بصري في مؤلفه [اعلام الكرد] متعرضاً لسيرة حياته [الصف ٦٦-٦٩. لندن ١٩٩١] أسماء كتب ومؤلفات له بين تاريخ وأدب وشعر. منها كتاب حول الشاعر التركي والكاتب الشهير نامق كمال. وعن الشاعر فضولي وكتاب (فراق عراق) وكتاب چالشمش اولكه (حول الأراضي التي إغتصبها السلطان عبدالحميد) وكتاب (ناصرالدين شاه والبابية) وكتاب (المدافع والنار) الى مقالات عدة. ومن أوجه التناقض ما دونه الأستاذ بصري نقلاً عن العراقيين الذين عاصروه وإتصلوا به تحوله الفجائي الى المعسكر الساخط على الإتحاديين والمعادى لهم. "بإدانتته التعصب القومي الذي تدعو اليه الطورانية إزاء الأخوة العربية - التركية ومهاجمته إياهم لمناذاتهم بتجريد اللغة التركية مما دخلها من العربية" وعزا الى صديقه محمود صبحي الدفتري وهو من وزراء العهد الملكي في العراق أن صديقه هذا كان يكتب مقالات في صحف استنبول دفاعاً عن العرب. وأكثر مالفت نظري من مزاج هذا الرجل الزئبقي السريع التقلب تحوله المفاجيء الى داعية لإستقلال الكرد كما يتبين في فقرة إقتبسها الأستاذ بصري في سيرته من كتاب (غوستاف غوتيرو) الموسوم [فرنسا في سورية وكيليكيا] المطبوع في ١٩٢٠. وهذه هي "على إثر إندحار تركيا في الحرب العامة وإحتلال القوات الفرنسية والبريطانية في أواخر ١٩١٨ مقاطعة كيليكيا وقاعدتها (أدنه) نشط الأتراك يحشون زعماء الكرد في منطقة ماردين ودياربكر على المطالبة بإستقلال كردستان وكان سليمان نظيف بك في مقدمة الدعاة لهذه الفكرة مع عبدالله جودت وغيره".



وندكار الملقب (سليمان نظيف)

يقوم بجولة في أنحاء قريبة من الحدود التركية الفارسية وقصده اللقاء بـ (سمكو آغا) رئيس العبدوي من قبيلة شكاك ألقت القبض عليه عصابة من هذه القبيلة وحملته الى والي (وان) بأمل الحصول على الجائزة. وتم إرساله الى الموصل بحراسة مشددة. وهناك أُحيل متهماً الى مجلس عرقي عسكري. وشُنق مع رفاقه بسرعة بأمر والي دون الحصول على المصادقة على الحكم الواجبة من استنبول^(١١).

ثم تحول والي الى بقية الشيوخ الموقعين على المطالب فألقى القبض على الشيخ نور محمد البريفكاني وزجّه في سجن الموصل فلم يلبث أن توفي فيه. والظاهر وكما يؤكد الدملوجي أن المصير عينه كان مدخراً للشيخ بهاء الدين النقشبندى البامرني لكن سليمان نظيف نُصح بالعدول عما إنتواه له.

*** ** *

١١- كل ما قرأت عن رواية القبض على الشيخ في المراجع المتيسرة بدا يصوره عملاً فردياً تلقائياً صرفاً لعصبة من قبيلة الشكاك خانت تقاليد الضيافة طمعاً بالجائزة التي رصدتها الحكومة العثمانية ثمناً لتسليمه دون إسترعاء الإهتمام بالخلفيات السياسية التي يمكن أن تستبطن المؤامرة وتخرجها عن طابعها الفردي وعن مجرد الطمع الصرف بالجائزة المالية. طالما شككت بأن تعليلاً كهذا ينقصه العمق بوضعي الصورة الحقيقية للموقف السياسي العام الذي ساد المنطقة وقتذاك لاسيما تحول الشيخ عبدالسلام وغيره من الإصلاحيين الكرد الى الروس بعد يأسهم من السلطة العثمانية. ثم بالصراع بين الدولتين لكسب الولاء الكردي بخاصة وتحول إسماعيل (سمكو) الشكاكي الى المعسكر التركي وقطع صلته بالروس الى حد مهاجمته المواليين لهم. كنت أميل بعد تأمل الى يد سمكو في القبض على الشيخ عبدالسلام رغم محاولة الكثير من الكتّاب الكرد إبعاده عن عمل إرتكبه أفراد معروفون من عشيرته يدينون له بالولاء أو على أقل تقدير يخشون غضبه وعقابه الشديد لو أقدموا على ما يأنف منه ولايرضاه، ثم ليس من المعقول قطعاً أن يقطع هؤلاء الأفراد بغنيمتهم الثمينة مسافة تقارب مائتي كيلومتر الى (وان) لتسليم أسيرهم وقبض الجائزة دون أن تصل أنباء ذلك الى رئيس العشيرة سمكو لو إفترضنا جهله بها. لاشك في أن قنص هذا الصيد الثمين سيرفع من مكانته عند الأتراك حلفائه الجدد. وبالنسبة أريد أن أنقل هنا نصاً الحاشية التي وردت في الصحيفة ٤٣٢ من الترجمة العربية =

في العام ١٩١٣ نشبت ثورة خطيرة في بتليس رأسها عددٌ من علماء الدين الكرّد. وصفها الباحث التركي يلماز أمين أحمد بهذا الشكل:

"ثورة بتليس كانت من تدبير القنصل الروسي هناك. وقد جاءت في أعقابها مذابح الأرمن - وكان القصد منها خلق الذرائع لتدخل روسي فعّال. لكن تمّ تحاشي ذلك بمحض صدفة" (١٢)

إنّ هذا الكاتب يجانب الحقيقة. فما حصل هو خلاف ذلك تماماً.

نقول عرّف ملاّ سليم بنشاط كرديّ دينيّ الصبغة ونشط بين شيوخ منطقة (خيزان) المحليين امثال علي آغا وشهاب الدين وحضّهم على القيام ضدّ الإتحاديين. كانت خيزان بؤرة لشبكة طريقة صوفية ذات مجسّات عديدة إستطال بعضها ليتصل بآل بدرخان في بوتان من جهة وبالمعارضة الكرّدية في استنبول.

كما كان لشبكة ملاّ سليم هذه صلة بالروس الذين سبق لهم فدخلوا الحدود الإيرانية ونشروا قواتهم منها على مشارف الحدود التركيّة وشجعوا أولئك الذين كانوا يطالبون باللامركزية في تلك الأنحاء. ووجد ملاّ سليم نفسه يقود حملة قبائلية كردية حققت نجاحاً مبدئياً فقد قيل إنها بلغت مشارف بتليس. حيث كان ملاّ سليم يقود العصيان

= لكتاب لازاريف (المسألة الكرّدية: المرجع السالف):

« تقرير مينورسكي في ٧ أيلول عام ١٩١٤: ناصر الدولة كاركواز (أي مسؤول وزارة الخارجية الإيرانية في تبريز) قال ان الأتراك ينوون إقناع عبدالسلام بالانتقال الى جانبهم ليرأس حملة على أرميه. وبموجب أخبار (نيكييتين) فإنّ الأتراك يتربّصون منذ وقتٍ طويل بالشيخ عبدالسلام البارزاني وإن الشيخ (السيد) طه نصح البارزاني بالإختفاء إلّا أنّه لم يصغ إليه. وكتب نيكييتين: بأنّ الشيخ البائس عبدالسلام لم يكن حاذقاً بالمؤامرات السياسية فهو كان كردياً بسيطاً ولهذا فإنّ أيامه كانت قصيرة. ودخل البارزاني في محادثات مع سمو الذي إعتقله وسلّمه الى الأتراك وتسلم ثمن خيانتته من والي (وان) جودت باشا وأرسل عبدالسلام مخفوراً الى الموصل حيث شنع مع أربعة من أعوانه. »

نحن لانشكّ في أمانة المترجم رغم صعوبة النقل من الروسية لكننا لاندرى أكان إهمالاً منه إغفال ذكر مراجع المؤلّف في هذا وفي كلّ الكتاب المترجم أم أنّ المؤلّف نفسه كان خالياً منها. سيّما وأنّ إسناد الرواية كان الى عالمين مستشرقين مشهورين عرفا بالدقة والموضوعية. وقد بدا من العبارة المنقولة عنهما وكأنّ ضلوع (سمكو) في القبض على البارزاني من قبيل المسلّمات التي لا تحتاج الى براهين. ١٢ - Yelma Amin Almad: Turkey in the World War : تركيا في الحرب العالمية: مطبعة جامعة بيل. الولايات المتحدة ١٩٣٠. ص ١٦١.

من الداخل. إلا أن السلطة عبأت قوات كثيفة ونجحت في سحق الثورة. ولجأ قائدها ملاً سليم إلى القنصلية الروسية في المدينة وبقي فيها أكثر من عامين حتى دخول تركيا الحرب ضد الحلفاء. وبيدء العمليات الحربية إقتحم الأتراك مبنى القنصلية وقبضوا على ملاً سليم وشنقوه علناً.

لم تعد فكرة اللامركزية والحكم الذاتي للكرد غريبة عن الأذهان بمجيء العام ١٩١٢ وتعبير الحكم الذاتي لم يكن جديداً أو مستحدثاً، فقد سمعته الأذن الكردية من وطنيين أرمن وعرب قبل أن يبشر به الكرد أنفسهم وإننا نعلم عن ثقة بقيام دعاة وعلى رأسهم آل بدرخان ينشرون في نهاية العام ١٩١١ الدعوة إليه في بوتان ويتصلون برؤساء العشائر الناقمين على الإتحاديين. وقد شملت دعوتهم منطقة واسعة جداً امتدت من بوتان إلى الحدود الفارسية شرقاً. وجنوباً إلى بهدينان وسوران ولاسيما (السليمانية). في شهر آب من العام ١٩١٠ عاد عبدالرزاق ابن محمد نجيب بدرخان من منفاه (باريس)، ورحل إلى تبريز للإتصال بالسلطة الروسية متحدثاً عن فكرة قيام حكم ذاتي كردي تحت الحماية الروسية.

وفي كانون الأول من العام التالي (١٩١١) عاد يجتاز الحدود ثانية وهناك بدأ يشير مخاوف من قيام حكومة أرمنية تقوم في الأناضول قائلاً إن روسيا تستطيع أن تضفي على الكرد نظاماً سياسياً تحت حمايتها وذكروا أنه إتصل بسمكو آغا الشكاكي الذي كان وقتذاك قد إنقلب على الأتراك وأنشأ علاقات مع الروس.

وترامى للإتحاديين ما أكد لهم إتجاه نية الروس في خلق دولة كردية عازلة بين الإمبراطوريتين بسبب العدد المتزايد من الكرد المتجاوبين مع الدعوات الروسية. فقد إنضم إلى عبدالرزاق بدرخان وعمه كامل بك السيد طه النهري الذي إنتهت إليه المشيخة بعد وفاة أبيه في ١٩١١. وإستخدم الروس عبدالرزاق بك و كامل بك فيما بعد على نحو ماسيأتي ذكره في العام ١٩١٣. كان بوسع الكرد أن يقدموا عرضاً قومياً مهيباً من الوطنيين في الميدان السياسي الصاخب، من أمثال حسين بدرخان وابن عمه عبدالرزاق وعمه كامل بك والشيخ عبدالسلام البارزاني. والشيخ عبدالقادر النهري. والسيد الشيخ طه النهري. وعدد من زعماء اليزيدية. ومار شمعون بنيامين (حليفاً) خطير الشأن.

ورأت حكومة الإتحاد أن تعود إلى نظام الآغاتية الذي برهن بأنه قد يقوم خصماً

عنيداً بمواجهة الوعي القومي والدعوة الى اللامركزية الكرديّة - ووجدت من الضروري أن تتبنّى سياسة إحياء التشكيلات الحميدية شبه العسكرية التي لفظتها ثورة الدستور في حينه. في ١٩١٠ عمّد والي (وان) الى إرسال الشيخ محمد صادق النهري الى إيران بغية إقناع بعض زعماء الآلايات الحميدية بالعودة وكانوا قد هربوا الى إيران. ثم أصدرت قراراً بإعادة نظام الآلايات تحت إسم جديد "الآلايات الخفيفة" لفرسان القبائل. وكانت قد اتخذت سياسة تحطيم سلطة الأغوات في الأول فعادت الآن لنهج سياسة معاكسة بتقوية الرؤساء الكرّد على طول الحدود الشرقية، وضمتّ عدداً من الأغوات الى لجان فروع جمعية الإتحاد والترقي في المدن والريف.

مما تضمنت السياسة الجديدة إحياء النعرات الدينية وإذكاء الروح الإسلاميّة، والعمل على إحباط مساعي القوميين الكرّد في إيجاد نوع من التقارب والتآخي وخلق أرضيّة للعمل المشترك مع الأرمن. ومن ذلك بثّ إشاعات وكتابة المقالات في الصحف حول سوء نية الرّوس، بدعمهم الأرمن على حساب الكرّد. وشرع الإتحاديّون منذ شهر تشرين الأول ١٩١٠ يبعثون بمندوبيهم من استنبول الى أنحاء كردستان الشرقية لإثارة الزعماء الكرّد ضدّ الأرمن، لنجد في أواخر تلك السنة كلّ «المفتشين الإتحاديّين» المنتمين الى «جمعية الوحدة الإسلاميّة»، يتجولون بين القبائل ويحثون زعماءها على وجوب الإستعداد للحرب ضدّ الرّوس.

بعد الإنقلاب العثماني بقليل أزيح الستار عن خطّة الأمير (باسكيفتش) حول السياسة التي يجب على روسيا إتباعها بخصوص الكرّد.

كان (باسكيفتش) أوّل موظف مسؤول روسي أدرك أهميّة الوطن الكردي الاستراتيجية العظيمة للروس في العام ١٨٢٨ معلّقاً الأهميّة الكبيرة على إنشاء علاقات طيبة مع الكرّد في مجال مخطط حكومته العسكري لفتح الأناضول بوضعه شروطاً ثلاثة بينها الوصول الى تفاهم مع القبائل الكرديّة في الهضبة الأرمنية ووادي الفرات الأعلى^(١٣).

١٣ - W.E.D Allen and Paul Muratoff: Caucasian Battle field: A History of the Wars on the Turco- Caucasian Borders. 1828-1921. كمبردج. مطبعة جامعة كمبردج ١٩٥٣، ص ٣٢ «والشرطان الآخراّن في الخطة: (١) ضمان إرسال النجيدات العسكرية الى جبهة الأناضول. (٢) ضمان الحالة سلم مطلق وثيق مع بلاد فارس».

مرّ حوالي قرن من الزمن على هذه الخطّة وإنطوت صفحاتها تقريباً بالحروب العديدة التي نشبت بين الإمبراطوريتين ومداخلة دول ألمانيا وإنجلترا وفرنسا في تلك الحروب، فضلاً عن انصراف الروس الى الإهتمام بمصائر الأرمن في تركيا. إلا أن إنقلاب ١٩٠٨ والأحداث التي تلتها لاسيما تصاعد المدّ القومي الكردي. أدت مما أدت الى إعادة النظر في خطّة (باسكيفتش) بكثير من الجدبة بل قل أدت الى نفخ الغبار عنها، حتى بدت بالنتيجة وكأن الروس في سبيل إتباع سياسة أكثر جرأة في هذا السبيل بهدف مزدوج: كسب الكرد أولاً، ثم توجيههم ضدّ حكامهم الترك والفرس ثانياً. وإستخدموا لذلك المال والسلاح الى جانب الوعود لاحداث القلاقل والإنفصالات. من ذلك أنهم دفعوا (سمكو آغا) الى شنّ الغارات على الأراضي التركية والقيام بعمليات سلب وقطع طريق وتخريب القرى والمزارع وتدمير الممتلكات على الحدود^(١٤) والى تشجيع إنتفاضة بتليس كما مرّ بيانه.

وزوّد تصاعد المدّ القومي الكردي الروس بفرصة غير مسبوقه لنشاط سياسي. بين الكرد أسرعوا الى إقتناصها. وإستغلّوها بحكمة وحصافة. قال الرائد (ميجر) نوييل: "شجع الروس الحركة القومية الكردية بأوسع نطاق. ولم يتردد المطاردون واللاجئون القوميون في اللجوء الى روسيا وطلب المساعدة. أمّنت القومية الكردية مرتعاً خصباً للنشاط المؤيد للروس لعدد كبير من قادة الكرد وهو عمل كان قبل عشرين عاماً أو ثلاثين يعدّ من قبيل الخيانة يتخذ الآن صفة البطولة والنبيل في أعين كثير من الكرد"^(١٥)

بعد قيام الروس بإحتلال أذربيجان الفارسية. صار تماس القوميين الكرد مع الروس فضلاً عن تسللهم من تركيا. يتم في المراكز الكردية هناك مثل أورميه وماكو وخوي وصاوبلاغ. وتزايد عدد زعماء الكرد القادمين من وراء الحدود إعتباراً من العام ١٩١٠، للتعاون مع الروس. ويذكر لونغريك أن سادة النهري والشيخ عبدالسلام البارزاني وبگزاده الجاف فضلاً عن مطارنة وزعماء الآشوريين (مالك) لم يكونوا

١٤- من مقال للكاتب پرايس price عنوانه "روسيا والكرد Russia and the Kurds" نشر في مجلة المانشستر غارديان العدد ١١، في ١٤ ايلول ١٩٥٠.

١٥- Edward William Charles Noel: Notes on the Kurdish Situation إدوارد وليسام چارلس نوييل: ملاحظات عن الموقف الكردي، ص ١١.

الوحيدين الذين قصدوا الروس وأنشأوا علاقات معهم^(١٦).

ما الذي كان الروس يهدفون؟ ماذا كان قصدهم النهائي من هذا الإنعطاف السياسي المفاجيء؟ ليس هناك مصدرٌ ينير لنا السبيل.

كتب [بازل نيكيوتين] مقالاً نشرته جريدة المانچستر غارديان بعددها المؤرخ في ٢١ ايلول ١٩٥٠ قال: "في حدود العام ١٩٠٩ شخص عبد الرزاق بدرخان الى بطرسبورغ العاصمة الروسية حاملاً مشروعاً لكردستان مستقلة. إلا أن الحكومة الروسية لم توافق، ونفى نفيّاً قاطعاً - كما قال في حينه - إعتزام روسيا أو نية لها في إقامة كيان كرديّ مستقل مدلاً على عدم إهتمام بلاده بهذا الأمر بأن الجيش الروسي في القفقاس أثناء الحرب العظمى الأولى لم تكن لديه خرائط دقيقة لكردستان. وليس بين تشكيلاته من يعرف اللغة الكرديّة. ثم زاد على هذا قوله إنه وبوصفه القنصل الروسي في أورميه أثناء الحرب لم يتسلّم أي تعليمات بخصوص كيفية التعامل مع الكرّد" وختم مناقشة الأمر بالقول:

"أميل الى الاعتقاد بأنه وعلى العكس من قضية الأرمن والنساطرة (الآشوريين) الى حدّ ما. لم تكن وزارة خارجيتنا ولا نائب القيصّر في تفليس يملكان أيّ سياسة كردية معينة"

ويخالفه الميجر نوئيل. وله وجهة نظر أخرى.

نوئيل ضابط إستخبارات بريطاني كفوء وواحد من ألمع الخبراء في الشؤون الكرديّة ومتابع دقيق للنشاط الروسي في الشرق الأوسط. كتب في تقرير رسمي مؤرخ في تموز

١٦ - Stephen H. Longrigg: Iraq (1900-1950) A Political, Social and Economic History. ط. لندن ١٩٦٨. ص ٦٧. «العراق من ١٩٠٠ الى ١٩٥٠ - تاريخ سياسي إجتماعي، إقتصادي» لم أجد لهذه العبارة أثراً في الترجمة التي عملها السيّد سليم طه التكريتي للكتاب ونشرها بجزيئين في بغداد بتاريخ ١٩٨٨. وهذا ديدنه كما إتضح لي. فقد تجرأ على حذف اجزاء كبيرة من فصوله لأنها لا تتفق والمزاج القومي العربي. كمقدمة الحديث الذي جاء في الكتاب عن قضية الآشوريين ومذبحة ١٩٣٣. وفقرات أخرى كثيرة لا تعجبه أو يخشى منها أن تجلب له المتاعب. دأب هذا المترجم في سائر الكتب التي نقلها نقلاً سيئاً بسبب إفتقاره الى الأداة العربية والمعرفة الكافية باللغة الإنكليزية التي تؤهله للنقل لتوقعه في أخطاء مضحكة. لم يقدّم السيّد التكريتي وهو صديق وزميل دراسة - وزناً لأمانة النقل والترجمة مطلقاً، في الظاهر مراعيّاً لمشاعر جهات سياسية وقومية عراقية وإجتنباً لمظنة سوء وهو من اليساريين القدماء على أن أكثر ما أنكرته عليه هو بعض التعليقات والهوامش البالغة السخف التي يتحف بها قراءه مظهراً لنفسه رأياً يخالف رأي المؤلف الأصلي لاسيما في موقف دفع شبهة قد تقوم ضده. وقد توفي أسأل له من الله المغفرة.

١٩١٩ مدعيًا بأنه وقع على وثائق رسمية روسية في تفليس صادرة أثناء الحرب تلقي ضوءً عجيباً على وجه معين من أوجه السياسة الروسية في كردستان يقول:

"من الوثائق التي وقعت بيدي. العائدة الى قيادة الأركان العامة في تفليس (تفليس) للعام ١٩١٧. تكون عندي إنطباع بأن الروس إعترفوا باستخدام الكرد بمثابة عامل موازنة مع الأرمن. وانه ماكان في النية إعطاء الأرمن مجالاً من الحرية للمطالبة بأرض يدعونها وتقطنها غالبية كردية"

وكان نوييل مؤمناً بأن الروس سيحيون حتماً إهتمامهم بكردستان حتى أنه حث حكومته على أن تنتهز الفرصة ولا تضيع وقتاً في إيجاد موطيء قدم بريطاني في تلك الأنحاء:

"نظراً الى العلاقة الوثيقة بين ميسوپوتاميا وكردستان. والعدد الكبير من الكرد الذين دخلوا في إدارتنا الميسوپوتامية. أرى من الأهمية بمكان أن ننأى بكردستان عن الروس. والمشاركة في مسألة تحديد مجال نشاطهم هناك" (١٧)

١٧- Noel: On Special Duty in Kurdistan from June 4th to September 21st. 1919. البصرة مطبعة الحكومة ١٩٢٠. ص ١١. "يتحدث الأستاذ كمال مظهر أحمد في كتابة الجيد التأليف حقاً. «كردستان في سنوات الحرب العالمية الأولى» [الترجمة العربية. بغداد ١٩٧٧. الص ٤١-٦٧] بإسهاب عن إهتمام الروس كتاباً وباحثين ورحالة ومستشرقين ومراكز سلطة أحياناً ويأتي بحشد عظيم من المصادر والمجهودات القلمية التي زخرت بها المكتبة الروسية منذ أن إتجهت أنظار القيصرية الروسية الى جنوب القارة الآسيوية في أواسط القرن الثامن عشر فصاعداً. ويختم الكاتب حديثه حول هذا الموضوع بما يشبه رأي نيكيتين. إذ قال نصاً:

«وهكذا وكما نرى فإن روسيا رغم أنها كانت تتطلع الى أراضي كردستان و ثرواتها شأنها شأن معظم الدول الكبرى الأخرى (لم تكن الثروة النفطية موضع بحث في تلك الفترة طبعاً) لكنها كانت تفتقد خطأً سياسياً واضحاً إزاء كردستان. وكثيراً ماكانت سياستها تتغير حسب مقتضيات الزمان والمكان. لقد إعتترف القنصل الروسي في أورميه (كتبها ورمي) في إحدى الوثائق السرية بأن الروس كانوا ينظرون في الدرجة الأولى الى المسألة الكردية ومستقبل كردستان من زاوية إقامة دولة أرمينيا المستقلة. وهذا ماكان في الواقع سبباً رئيسياً لأن يبتعد حتى الكرد القاطنون على الحدود، عن روسيا التي كانت تنتهج بجلاء سياستين مختلفتين إزاء الكرد والأرمن فلم يحدث بالنسبة للكرد أن آزرتهم مؤازرة تامة في مسألة مهمة في حين كانت تساند الآشوريين والأرمن باستمرار ولاسيما الأخيرين وكانت تزودهم بالسلاح عند الضرورة..... وفي كتاب رسمي كتب الأمير شاخوفسكي بهذا الصدد يقول: "كان الإعتماد منذ بداية الحركات العسكرية (في الحرب العالمية) على الأرمن... حيث بوشر بتشكيل فرقة أرمينية متطوعة بينما لم يعر الكرد أي إهتمام تقريباً".

ملاحظة: ما بين قوسين من وضعنا.

الفصل الرابع

ويلات الحرب في كردستان. خريض كرد إيران والدعوة الى الجهاد.
التهجير الجماعي والمذابح. المجاعة تطل الكرد. فرمان السلطان
محمد الخامس بتهجير الكرد. أحوال كردستان السيئة. عمليات
التهجير تتواصل خلال سني الحرب

ألقي الإتحاديون بحظوظ الإمبراطورية العثمانية وقامروا بمصيرها عندما إنحازوا الى
دول الوسط لتبدو كردستان بجزئيتها الفارسي والعثماني ساحة كرفر بين الجيوش
الروسية والعثمانية في السنوات الثلاث والأشهر الستة الأولى من الحرب ثم دخلت
بريطانيا الساحة الكردية في السنة الأخيرة من الحرب عندما تقدمت قواتها شمالاً
لإحتلال الإقليم الجنوبي من كردستان شمال بغداد والتّماس العسكري في الإقليم
الكردى عبر الحدود الفارسية شرقاً باتجاه خانقين وكرمنشاه.
يدخل الإقليم الكردي شمال بغداد فيما عرف إدارياً بولاية الموصل.
وكانت معاناة الكرد تفوق الوصف.

تقع كردستان الشمالية على إمتداد حدود الإمبراطوريتين الروسية والعثمانية. فهي
طريق التماس بين جيوش الدولتين، لتغدو في أولى مراحل الحرب ميدان قتال ليس
ضمن الحدود الروسية وحدها. فقد إتسعت ساحات العمليات ابتداءً من (سري كميّش)
شمالاً حتى خانقين جنوباً. ومن أنحاء (موكري) شرق أرضروم حتى أرزنجان غرباً.
وبقيت أجزاء عديدة من تلك الأرجاء الواسعة تنتقل من يد الى يد في مسرى القتال
مرات عدة. ويبدو أن الطرفين المتحاربين لم يتعففا عن إرتكاب الجرائم ونشر الرعب بما
إقتربا من فظائع وأعمال وحشية ولا يدعوا ذلك للعجب نظراً للأحقاد والعداوات
المستحكمة بين الفرقاء وزادت الفظائع سعاراً بإعلان السلطان «الجهاد». وبلغ الحقد
أشدّه عند الأرمن والآشوريين الذين كان الروس يستخدمونهم بمشابة قوات إحتياطية

وفصائل عقابية داخل المدن أو أماكن السكنى الكردية المحتلة. بسبب المذابح الأرمنية التي أطلق الإتحاديون عنانها وشجعوا فئات من الكرد على المشاركة فيها، بل كانوا يدفعونهم إليها قسراً تحت طائلة العقاب بسوء قصدٍ وتعمدٍ لتُخضب أيديهم معهم بدماء الأبرياء المساكين.

واستوفت الحرب قسطها الأوفى من القوى البشرية الكردية. ليس من السهل تقدير عددٍ للمحاربين الكرد الذين حاربوا في الجيوش العثمانية. ويمكننا الركون الى حدٍ كبير الى تقدير مؤرخ وعسكري كردي موثوق. كان بحكم مركزه في هيئة أركان القيادة العثمانية مطلعاً تمام إطلاع على ملاكات الجيوش العثمانية بحكم رتبته العالية يقول محمد أمين زكي:

"كان الكرد قوام الجيش الحادي عشر ومقره (معمورة العزيز) والجيش الثاني عشر ومقره الموصل فضلاً عن مائة وخمسة وثلاثين بلوكاً (كتيبة) من الخيالة بمثابة وحدات إحتياطية أي أربع فرق ولواء. علاوة على بعض وحدات حاميات الحدود وكامل آليات (أفواج) الجندرية ورجال الأمن. فضلاً عن هذا فان الكرد أَلْفُوا معظم ضباط ومراتب الجيش التاسع ومقره أرضروم، والجيش العاشر المرابط في سيواس. وبطبيعة الحال وقع على الشعب الكردي تموين هذه الجيوش. ونظراً لطول أمد هذه الحرب المدمرة. كان على هذا الشعب تحمل ويلاتها ونكباتها أكثر من مرة. حيث دُعي مراراً لإكمال نقص هذه الجيوش وتموينها" (١).

١- خلاصة تاريخ الكرد وكردستان من أقدم العصور التاريخية الى الآن... ج ١ ص ١٧٩ الطبعة الثانية ١٩٦١. إلا أن الشاعر السليمانى المعروف بالملا حمدون: (١٨٦٠-١٩٢٠) يعرض لنا في قصيدة طويلة صورة حية للأيام السود التي عاناها أهالي السليمانية في دوامة تلك الحرب، وإليك مقاطع منها:

«الجندرية» كالجوارح الجائعة تحب	ژەندرمە ئەسوریتەو وەك واشەى برسى
بحثاً عن الناس لتأخذهم بحجة الجهاد.	لو لاشەى مېللەت فرۆفیتلى غەزاو
والسخرة أنهكت الحمير والخيول والبغال	فەوتاو و لەبەر سوخرە کەر و قاتر و یابوو
والجمل بات منهكاً والثور قصم ظهره	حوشتر سەقەت و شل بوە گا پشستى شکاو
والحمار لم يعد يستطيع النهيق رغم قدوم الربيع	کەر شەوقى زەرینى نېبەهەتتا لە بەهەرا
خوفاً من افتضاح أمره وسوقه للخدمة	ترسى هەیه ئەک بېخەنە ژتیر بارى تەزاو =

وإستجاب عدد كبير من زعماء القبائل الكردية لدعوة الجهاد وزجوا بأنفسهم في ساحات القتال دفاعاً عن الدين الخفيف. كأولئك الذين قاتلوا بإمرة الشيخ محمود وقوات الجاف في معركة الشعيبية جنوب العراق. وأستخدمت قوات قبائلية كردية ضد الإندفاع الروسي في كل من تركيا وشمال غرب إيران.

يقدر محمد أمين زكي مبلغ خسارة الشعب الكردي في هذه الحرب بثلاثمائة ألف من الشباب ومتوسطي العمر على أساس تخمين المجموع العام للأكراد العثمانيين بثلاثة ملايين. ومهما رأى القاريء من مبالغة في هذا التقدير. فما من شك في أن التسامح بنصف هذا العدد هو بحد ذاته خسارة مهولة. وعلى القاريء أن يضع في حسابه أن عدد من هلك جراء البرد والجوع والمرض يعادل إن لم يكن يفوق ما سقط في ميدان القتال.

ولم يُجزَ الكرد على هذه التضحيات تلك كما جوزي العرب فحظوظهم هي التي ألقتهم الى الجانب الخاسر في هذه الحرب.

الجيش العثماني المربط في كردستان كان في حالة يرثى لها. كان جائعاً أبداً يكاد يكون شبه عارٍ بيزاته الممزقة وهو يفتقر الى وسائل المواصلات ويشكو شحة الأعتدة. وتضطر الهيئات العسكرية إشباعاً للبطون الجائعة الى إرغام الأهليين على بيعهم الأرزاق وغير ذلك من المهمات بأسعار واطئة جداً تحددها هي. وكثيراً ما تدفع لهم بالنقود الورقية التي لا تسوى ربع قيمتها الحقيقية. وفي أحيان كثيرة تعمد الى تطبيق أساليب الجيوش الغازية القديمة باستلاب ماتحتاجه وإغتصابه أي مصادره.

وترك الفلاحون أراضيهم ورفضوا أن يزرعوها وانتشرت الاوبئة والمجاعات في المدن الى الحد الذي كان الموتى جوعاً يتساقطون في الشوارع. في السليمانية مثلاً عانى الأهالي تلك المجاعة القاتلة التي أنقصت عدد سكانها الى العشر تقريباً على حد تقدير

بۆ گرتن و بۆ کۆشتنی ئەم عاله مەیه ک ئەم عەرەسی ئافاتە ئەبیبی حەلقەیی دادەو هەر شەش جیهەتی گرتو ئەشووبی مسیبهت میشوولە مەجالێ نییه بفرێ لێ هەواو	= این سرحت النظر. فلن ترى غير جثث مهروسة وأجساد مهشمة. ومدافع الموت أتت على الأخضر واليابس في الأرض وأعملت فتكاً بالأرواح أطبقت الكوارث على الجهات الست ولم يعد للبعوض مجال للطيران.
--	--

الميجر سون:

«قدرت نفوس السليمانية بعشرين ألفاً في شهر تشرين الثاني ١٩١٤ .
وتناقصت الى حدّ ألفين وخمسمائة فقط في شهر تشرين الثاني ١٩١٨
عند احتلالنا المدينة. والمجاعة والأمراض تفتك بهؤلاء فتكاً ذريعاً»^(٢).

وإدارة العمليات العسكرية كان طابعها القسوة والوحشية المفرطة. لم يكن المتحاربون يقيمون وزناً لحياة الأهالي ولا لمقتناتهم. تدمير واسع النطاق. بؤس شنيع يزيد من شناعته تبديل الحظوظ الحربية من تقدم وتقهقر وهجوم وإنسحاب بما يصاحب ذلك من قتل وهتك أعراض وتدمير ونهب. وقد باتت مناطق عديدة من كردستان خراباً بلقعاً خالية تقريباً من الأحياء.

هاهنا بعض الأمثلة لتزويد القاريء بفكرة عن الدمار الذي ألحقته الحرب بالكرد: عندما توغل الروس في منطقة بايزيد-الشكر، شمال كردستان في كانون الأول ١٩١٤. قالوا إنه لم يسلم من سيف الوحدات الأرمنية الملحقة بالجيش الروسي غير واحدٍ من عشرة^(٣).

بعد قيام الثورة الروسية (ثورة أكتوبر) وإنحلال الجيش الروسي في ١٩١٧ تحررت وحدات الأرمن المسلحة عن قيود الإنضباط العسكري الروسي. وإنطلقت على رسلها لتقدم في منطقة [ارضروم - ارزنجان] على مذبحه عامة هلك فيها كثير من الكرد. قدر عدد الضحايا هناك بما لايزيد كثيراً عن أربعين ألفاً نافيلاً زعم جمال پاشا (السفاح) أحد الثلاثي الذي حكم تركيا خلال الحرب. بأن عدد قتلى الكرد والترك بلغ مليوناً ونصف المليون^(٤).

هناك منطقة أخرى عانت أحوالاً مشابهة هي منطقة (شمدينان - رواندوز) في

٢- Soane: Report on Sulaimaniyah Disrtict of Kurdistan with some notes of the Frontier Tribes of Turkey and Persia, and History of the Frontier Question of the Countries. 1920

تقرير عن منطقة السليمانية الكردستانية مع بعض التعليقات عن قبائل الحدود التركية الفارسية وتاريخ قضية الحدود بين البلدين. مطبعة كالكوته الحكومية في ١٩٢٠.

٣- يلماز امين أحمد: المرجع السالف الص ٢١٨-٢١٩. [يؤخذ هذا التقرير بتحفظ كبير].

٤- جمال پاشا: ذكريات سياسي تركي . 1913-1919 Djamal Pasha: Memories of a Turkish Stateman مطبعة هچنستن. لندن. ص ١١٤.

طلعت پاشا



أحمد جمال پاشا



أنور پاشا



أواسط كردستان. فمن مائة قرية لقبيلة بالّك لم يبق قائماً غير ثلاثٍ أو أربعٍ فيما تمّ إشعال النار في البقيّة وتسويتها بالأرض ومن بين زهاء ثلاثين قرية في منطقة (روانديك) - برادوست لم يبق فيها رجل أو امرأة أو طفل^(٥). وعن عشيرة برادوست قامت جهود مشتركة من الروس والترك بتدمير ٥٢ من أصل ٨١ قرية كانت لها قبل الحرب. وكانت العشيرة تعدّ (١٠٨٠) عائلة لم يبق منها غير (١٥٧)^(٦). وعشيرة كُورْك التي كانت تعدّ مائة وخمسين عائلة لم يبق منها بعد الحرب (في ١٩١٩) غير سبع عوائل. وذكر أيضاً بأن المائتين والخمسين بيتاً التي كانت في قرية (نهري). لم يبق منها قائماً غير عشرة بيوت. ولم يبق من البيوت الألفين في رواندوز قائماً غير ستين في نهاية الحرب.

ويؤكد ميسن^(٧) ان الوحدات الأرمنية الملحقّة بالجيش الروسي تحت إمرة الجنرال [جيرنوزوبوف] فتكت بخمسة آلاف من الرجال والنساء والأطفال في منطقة رواندوز وخانقين وجوارها وكانا منحاّزين الى الترك في مقاومة الزحف الروسي ١٩١٦ - عانتا من الأهوال ألواناً حتى فترة احتلالها (نيسان - حزيران ١٩١٧) فقد صودرت مواشيها وأستولي على المخزون من الأرزاق وتواصلت حملات التفتيش في البيوت والقبض على الأهالي ليلاً ونهاراً وتفشت المجاعة لتفتك بهم فتكاً ذريعاً. ثم أكمل الترك خرابها عندما عادوا إليها بعد انسحاب الروس وشنقوا عدداً من الأهالي بتهمة تهريب ماشيتهم الى الشمال. ووجدها البريطانيون عند دخولهم تكاد تخلو من السكان.

كتبت جيرتروود بل:

«لم نجد في أيّ جزءٍ من ميسسويوتاميا ما أمكن مضاهاته بالبؤس والدمار اللذين واجهناهما في خانقين البلدة التي حصدها الروس حصداً وأتمّ الترك كنسها بدقةٍ ومثابرة. وتركوها عندما إنسحبوا فريسة الجوع والمرض.

٥- نويل. المرجع السالف ص ٥.

٦- Kenneth Mason: Central Kurdistan كينيث ميسن [مقال له في مجلة الجمعية الجغرافية الملكية. العدد ٦. (١٩١٩) ص ٣٣٩ عنوانه كردستان الوسطى.

٧- المرجع عينه الص ٣٢٩-٣٣٠. [لايؤيد نيكيتين هذا الزعم وينفيه بشدة فقد كان يرافق الجيش القفقاسي عند دخوله المدينة].

ورغم حياد إيران فقد أصبحت كردستان الفارسية ساحة قتال بعد نشوب الحرب بقليل. ونتيجة الأساليب الوحشية التي مارسها الجيشان تمّ تدمير مناطق عديدة تدميراً تاماً وإنحدرت بساكنها الى أسفل دركات البؤس والفاقة. ومن لم يُقتل أثناء عمليات الكرّ والفرّ مات جوعاً أو مرضاً وقد هلك آلاف بهذين.

الجيش العابر والمرابطة، تركية كانت أم روسية، كانت تنزع أحشاء القرى وتفري عظامها. عوارض السقوف الخشبية، كلّ قطعة خشبية تقلع لتستخدم وقوداً. ويأتي مطر الشتاء وثلوجه ليكمل تدمير الجدران الطينية العارية. الحقول مهملة تماماً لا تجد من يفلحها. وإن وجد زارع لها فإنّ الجوع يسلبه القدرة على العمل. ولم يكن ثمّ ملجأ في الواقع. فبلاد الفرس كانت كلها تعاني المجاعة^(٨). »

أعلنت فارس حيادها فور نشوب الحرب. وتوالى طلباتها لروسيا بسحب قواتها من أذربيجان إلاّ أنها بقيت بإستخدامها صداقة لها مع حاكم ولاية تبريز ومنها تصدّت للقوات التركية.

كانت تركيا تستطيع والحالة هذه أن تعتبر فارس دولة غير محايدة لتنقل الحرب إليها وبعثت برسائل الى رؤساء العشائر الكردية المجاورة تقول فيها أن القعود عن مساعدة الترك في (جهادهم) للتخلص من الروس يعادل الخيانة وعدم الولاء للشاه الفارسي. الى الجنوب إستجاب لدعوة الجهاد الشيخ عبدالقادر النهرى وشيوخ توكله النقشبندية وتلك القبائل التي لم تفد شيئاً من التواجد الروسي العسكري منذ العام ١٩٠٩. ووجدت فرصتها لقتال الروس وإلحاق الخسائر بتلك القبائل الكردية التي والتهم وإنحازت الى جانبهم في حين أعاد بعض هذه القبائل النظر في مواقفه لإختيار الجهة التي تؤمن له المنفعة. وكان لقبائل الشكاك والمامش والمنگور والزّرزه والهركي والبگراذه دور هام في نشر الإرهاب والإتيان بكل أعمال الفوضى والشغب في المنطقة. وفي ربيع العام ١٩١٥ كان الترك يتهيأون لهجوم روسي، ووجدوا أن الضرورة

٨- غيرترود بل: تقرير عن الإدارة المدنية لميسوپوتاميا ١٩١٤-١٩٢٠ G. Bell: Review of the Civil Administration of Mesopotamia 1914 - 1920. لندن المطبعة الرسمية الص ٤٤-٤٦.

تقضي بترحيل كل السكان الذين يعطفون على الروس جوار الحدود ، وهم الأرمن ومجموعات أخرى من الطوائف المسيحية (الكلدان، اليعاقبة، النساطرة الآشوريون، السريان الكاثوليك) وهي مجموعات هامة في المنطقة.

في السابع والعشرين من أيار ١٩١٥ وافق مجلس الوزراء في أستانبول على عملية تهجير عامة للسكان الذين « يشكّ في خيانتهم أو جاسوسيتهم أو تعاونهم مع العدو». والواقع هو أن عمليات التهجير ومارافقها من قتل بدأت قبل صدور هذا القرار.

في حالات كثيرة كان الكرد يخفّون لإنقاذ الضحايا المسيحيين بروح الجيرة، والصداقة التي شدّت بينهم أو لأنهم من (الرعية) بالنسبة للرؤساء والأغوات فهم لهذا يستحقون الحماية إلا أنه لا يصحّ إتخاذ ذلك قاعدةً. فقد كان الكرد الشرفاء العطفون يُهدّدون بعقاب السلطة إن لم يطيعوا أوامر الطرد أو القتل، ويبرز بين هؤلاء الكرد العلويون (القلباش) الذين بسطوا حمايتهم على المهجرين وأمنوا لهم المأوى. وربما كان الدافع الى هذا تلك الرابطة المصيرية التي تربط بين الطوائف والأقليات المضطهدة.

في نهاية الحرب وبعد أربع سنوات من تواصل العنف والتدمير. وجدنا آفاقاً مؤلفة من الكرد الجائعين والمرضى يتدفقون الى أورمية بحثاً عن طعام وملجأ. حالهم تستدر دموع الإشفاق من أغلظ الناس وأقساهم قلوباً. حتى الآشوريون الذين لم يستفيقوا من غدر (سمكو) بزعيمهم الروحي مار شمعون وحاشيته تحركت فيهم المشاعر الإنسانية فشاركوهم بما لديهم من طعام وكساء وراحوا يتوسطون لهم عند لجنة الإغاثة الأمريكية.

واليك قول شاهد عيان أمريكي:

«شارك الآشوريون بيوتهم وحصصهم الصغيرة من القمح الكرد الجائعين المنهكين وتقدم كلّ أساقفتهم ووجهائهم من الأمريكان برجا شمول الكرد البائسين بأعمال الإغاثة أعداء كانوا أم أصدقاء»^(٩).

٩- وليم. ت. إليس «القاضي الأمريكي»: وقائع لخدمات أنجزت في فارس أثناء الحرب العظمى وقبلها. ص ١٩: ط ١٩١٩

William T. Ellis: The Yanki Cadi, Being an Account of the Services Performed in Persia Held during and before the Great War.

نفسها لتعمل ما في وسعها لمساعدتهم والتخفيف عنهم. جاء ذلك في كتابه =

وجرت عمليات تهجير للكرد عديدة أيام الحرب. خلافاً لأولئك الذين تركوا منازلهم وتراهم هاربين أثناء تقدم الجيش الروسي في كردستان العثمانية. فقد وقعت عمليات تهجير قسرية لهم نظمها السلطات العثمانية. وصدر فرمان من السلطان محمد الخامس فيه تفصيل لمشروع تهجير الكرد وإعادة توطينهم. ويقضي بتجزئتهم الى مجموعات صغيرة وإسكانهم غرب الأناضول في مناطق مأهولة بحيث لا تتجاوز نسبتهم الى مجموع السكان هناك الخمسة بالمائة. أما رؤسائهم وشيوخ عشائهم فيتم إسكانهم في المدن والقصبات ومنع إتصالهم برجال عشائهم منعاً باتاً^(١٠) ويشير بلج شيركو الى أن سجلات إدارة اللاجئين التركية تذكر أن (٧٠٠٠٠٠) كردي أرغموا على ترك مواطن سكنهم. كثير منهم توفي بعامل الجوع والمرض قبل وصولهم الى الأماكن التي خصصت لهم.

= Les Kurds Etude Sociologique Historique الكرد: دراسة إجتماعية وتاريخية. باريس، ١٩٥٦. الص ٢٩٧-٢٩٨. يقول: « عملت اللجنة قدر [ما تستطيع] بتأمين الطعام إلا انهم كانوا يموتون كالذباب. ورغم محاولتنا مساعدتهم. فخير مجهوداتنا تكاد لا تمس إلا القشرة من بؤسهم».

١٠- بلج شيركو: القضية الكردية اصولها وأسبابها: بالفرنسية: Bletch Chirguh: La Ouestion: Ses Originues et ses Cause القاهرة: ١٩٣٠ الص ٣٢-٣٣. وراجع أيضاً نويل (المرجع السالف) ففيه مقتبسات من ذلك فرمان.

الفصل الخامس

سياسات شرق أوسطية فرنسية بريطانية. فاصل دبلوماسي.
التركيز على المستقبل العربي. شريف مكة يدعي بجزء من
كردستان. ضعف الحركة القومية بين الضباط الكرد. فشل
محاولات التعاون الكردي الأرمني. النشاط الروسي في كردستان.
إتفاق (سايكس بيكو سارازنوف) ودخول ولاية الموصل ضمن خطط
القسمة لما بعد الحرب.

لم يداخل الترك قلق شديد ولا وجدوا حاجة معينة تهدف الى إجراءات قمعية لوقف
تصاعد التيار القومي الكردي أثناء الحرب ولم يداخلهم كبير شك في ولاء الكرد
وجديتهم في الإسهام بالمجهود الحربي. ففي النهاية لانجد غير عدد من الوطنيين
لايتجاوزون أصابع اليدين كسبهم الطرف الروسي الى جانبه.
والتعاون الكردي الأرمني الذي عمل لأجله القوميون الكرد الكثير، لم يكتب له
النجاح أصلاً بسبب الحرب وإنضمام المحاربين الأرمن الى الجانب الروسي.
في الواقع لم يكن في المعسكر الروسي من الكرد العاملين في الحقل الوطني ذوي
المنزلة والكلمة المسموعة غير أربعة: سيّد طه شمدينان (النهري) وصفيه الشيخ
عبدالسلام (الى حدّ ما) وعبدالرزاق بدرخان وعمه كامل بدرخان. وهذان الأخيران وجدوا
في تفليس يحاولان إقناع نائب القيصر الدوق الأكبر (نيقولا) بأهمية تبني القضية
الكردية عبثاً. مثلما خابت مساعي الشيخ عبدالسلام معه قبلها. ربّما لأنّ المطامح
الكردية كان مقدراً لها بالأخير أن تصطدم بالمطامح الأرمنية؟ والحقيقة هي انه لم تكن
من مصلحة روسيا القيصرية الأخذ بيد الإستقاليين الكرد بتبني مشروع إستقلال أيضاً
الى جانب إستقلال آخر للأرمن. لأنها كانت في الواقع تريد أناضوليا الشرقية لنفسها.
إلا أن حركة الوعي القومي وجدت ضالتها في فئات صغيرة لكن مثابرة وعنيدة من

الوطنيين الكرد في المنفى واصلوا العمل من أجل تحقيق أمنية إستقلال كردستان (هذه المرة) وليست اللامركزية التي كانت قبلتهم قبل الحرب. لاسيما في خلال السنتين الأخيرتين من الحرب حينما بدا أفول شمس الإمبراطورية العثمانية مؤكداً وواضحاً لكلّ ذي عينين.

ولم تنتشر دعوى القومية الكردية بين الضباط الكرد في الجيش العثماني أثناء الحرب كما إنتشرت مثيلتها بين الضباط العرب في تلك الفترة وكاد كلّ الناشطين في القضايا الوطنية يكونون من المدنيين. بإستثناء الجنرال شريف باشا السليماني وهذا لم يكن ضابطاً في الخدمة الفعلية بل في السلك الدبلوماسي. ولم يبرز للضباط الكرد دور إلا بعد نهاية الحرب.

لم يسمع عن ضباط كرد انهم أظهروا مشاعر قومية. وإنما كانوا ضباطاً محترفين لا اهتمام لهم بالسياسة ولا بالنشاط القومي الكردي منذ إنقلاب الإتحاديين لا في العاصمة ولا في كردستان. ومما يلفت النظر حقاً والشيء بالشيء يذكر أن عدداً ملحوظاً من الضباط الكرد إلتحقوا مع الضباط العرب بشريف مكّة الحسين ابن علي عندما أعلن ثورته. تلك الثورة التي أججها البريطانيون ودعموها في ١٩١٦ وما بعدها.

عدل البريطانيون في العام ١٩١٥ فجأة عن سياستهم القديمة الطويلة العمر. بالمحافظة على كيان الإمبراطورية العثمانية. وهاهم الآن في ١٩١٦ يعملون بسياسة جديدة تهدف الى تقطيع أوصالها وإلحاقها بتلك الإمبراطوريات التاريخية الزائلة.

لأهمية هذا التحول الفجائي ولتأثيره في النشاط القومي الكردي وإنعكاسه على مستقبل كردستان ومصائر الشعب الكردي سأحاول بتمهيد تاريخي وجيز تتبع جانب واحد من آثاره. وكيف كان من نتائجه تقسيم كردستان مرة أخرى.

في ١٧٩٨ غزت جيوش فرنسا بقيادة الجنرال نابوليون بوناپارت أرض مصر واحتلها ثم سار الى سورية معتزماً وكما إدّعى فيما بعد بانه سيقصد (بابل) ويعبر منها الى الهند. إلا أن خطته هذه أحبطت على ما يحدثنا التاريخ حين وقف جيشه عند أسوار عكا وتراجع. ثم جلا عن مصر في ١٨٠٥.

كان الجواب البريطاني على التهديد دعم الأنظمة المحلية في الشرق ضدّ التوسع

الأوروبي. لم تكن راغبة في السيطرة أو بسط نفوذها على تلك الأصقاع. بل ظلت تحاول طوال القرن التاسع عشر منع الدول الأوروبية من التسلل اليها وجعلها مناطق نفوذ. وخاضت في سبيل ذلك حروباً الى جانب الدولة العثمانية كحرب القرم في العام ١٨٥٤ ووقفت أمام أطماع روسيا في الحروب التالية وكلّ قصدها المحافظة على الوضع الراهن. وباشرت من ضمن ما باشرته سياسة دعم ثابتة ومعاونة للدول الإسلامية المتداعية في آسيا. وكان خصمها اللدود روسيا القيصرية. وظلت منشغلة طوال القرن وكأن لا عمل لها إلاّ رصد تحركات الروس وإحباط خططهم. وقد أنجبت في خضمّ هذه المجهودات أجيالاً متعاقبة من الموظفين المدنيين والعسكريين شاركوا بحماسة وتفانٍ في هذه «اللعبة الكبرى The Great Game» كما أطلق عليها الكتاب السياسيون - حيث ترتفع قيمة الرهان الى أقصى ما يملكه الخصمان. رهانٌ حدّده السياسي الكبير لورد (جورج كرزن) بالشكل التالي:

«تركستان؟ أفغانستان؟ قزوين الشرقية؟ بلاد فارس؟ هذه أسماء لا توحى للكثيرين إلاّ بشيء بعيد... إنها بالنسبة إليّ وأنا أعتز بهذا - مجرد قطع أحجار مرصوفة فوق رقعة شطرنج تجري عليها لعبة السيطرة على العالم»^(١).

بل وقبيل نشوب الحرب العظمى بأشهر. وجدنا السرّ مارك سايكس كبير خبراء حزب المحافظين في الشؤون التركية ينذر مجلس العموم البريطاني بقوله. إختفاء الإمبراطورية العثمانية إن هو إلاّ الخطوة الأولى لإختفاء إمبراطوريتنا. وشاركه في هذا الرأي عدد كبير من ساسة بريطانيا العظام. أمثال الدوق ولنگتون^(٢) وكاننگ^(٣).

- ١- جورج نثنائيل كرزن [١٨٥٩-١٩٢٥] سياسي بريطاني تولى منصب نائب الملك في الهند [١٨٩٨-١٩٠٥] ووزارة الخارجية البريطانية (١٩١٩-١٩٢٤). شارك في مؤتمرات الصلح بعد الحرب. وفي إنشاء عصبة الأمم وقيادتها [الإقتباس من كتابه (بلاد فارس والقضية الفارسية) G. N. Curzen: Persia and the Persian Question لندن ص ٣]
- ٢- Arther Wellesly Wellington (١٧٩٢-١٨٥٢) الجنرال الذي هزم نابوليون بونابارت في معركة واترلو الفاصلة (١٨١٥). وأصبح رئيس وزراء (١٨٢٨-١٨٣٠).
- ٣- George Canning (١٧٧٠-١٨٢٧). سياسي بريطاني. أصبح رئيس وزراء في سنة وفاته وبقي فيها أشهراً. عرف بمجهوداته في تحقيق إستقلال اليونان.

وبالمستون^(٤) ودزرائيلي^(٥).

حصل هذا الإنقلاب العظيم خلال مائة يوم فقط وقضى على سياسة مائة عام -
تبتديء من إعلان تركيا الحرب. إستدارت بريطانيا بمقدار ١٨٠ درجة وإنطلقت لتحطيم
الإمبراطورية التي ركبت حكومات الوايت هول المخاطر وخاضت الحروب للإبقاء عليها.
في مبدأ الحرب كان من الضروري إيضاح طبيعة الوجود البريطاني في كل من مصر
وقبرص وهما جزء من الإمبراطورية العثمانية رسمياً، ومال البريطانيون بالأول الى
الحاقهما بها، سيما وأنها كانت تحتل مصر إحتلالاً فعلياً إثر ثورة عرابي باشا في
١٨٨٢، من وراء الخديوي الذي هو رسمياً نائب السلطان أو عامله على مصر. «ودارت
في حينه شائعات بأنه كان يفكر في إحتمال نزع لقب الخلافة من السلطان واتخاذ
لنفسه والحلول محلّه في حكم سائر البلاد الناطقة بالعربية بفضل هذا اللقب أي بقطع
البلاد العثمانية الى نصفين^(٦)». إلا أن المندوب السامي البريطاني في القاهرة صاحب
السلطة الفعلية كان ضدّ هذا العمل. ورأى فيه [رولاند ستورز] السكرتير الشرقي
للمندوب السامي الرجل الفعّال العظيم النفوذ والحول والطول خرقاً لتعهد بريطانيّ عمره
أربعون عاماً بالجلء عن أرض مصر وباعتبار وجود الجيش البريطاني وجوداً مؤقتاً،
وختق رغبة الخديوي وطموحه.

وفي نهاية العام ١٩١٤ عين (السرّ هنري مكماهون) معتمداً بريطانياً في مصر خلفاً
للورد كتشنر الذي أستدعي لتناط به وزارة الحرب. وهو موظف مستعمرات محدود
القابليات لا لون له شارف على التقاعد. وكان معه الجنرال (ريجنالد ونكيت) حاكم

٤- Henry John Palmerston (١٧٨٤-١٨٦٥) أحد أشهر الساسة البريطانيين في القرن التاسع عشر.
المعروف (بسياسته الإعتدائية) من المدافعين عن بقاء الإمبراطورية العثمانية والمحافظة على
السلام في أوروبا. وهو الذي حقق لبريطانيا نصرها في حرب القرم. رئيس وزراء (١٨٥٥-
١٨٥٨) و(١٨٥٩-١٨٦٥).

٥- Benjamin Disraeli (١٨٠٤-١٨٨١). من ألمع الساسة البريطانيين المحافظين ذو أصول يهودية.
تقلّب في عدة مناصب كبيرة وكان رئيس وزارة مرتين أشتهر بشرائه أسهم شركة قناة السويس
وسيطرة البريطانيين عليها. وخاض حرباً الى جانب العثمانيين في العام ١٨٧٧ ضد روسيا.

٦- إيلي خضوري: المتاهات الانكلوعربية. Eli Kadoury: The Anglo- Arab Labyrinth كمبرج ١٩٧٦
- ص ١٣.

السودان العام وقائد القوات البريطانية في مصر وهو شخصية ذكية أربية يتقن اللغة العربية مثله في القاهرة (كلبرت كلايتون) الذي يضاياه مقدرةً وذكاءً - وقد قُدِّر له المساهمة بدورٍ حاسمٍ في تغيير خارطة الشرق الأدنى عند حصول التغيير الفجائي في السياسة البريطانية إزاء مصير الإمبراطورية العثمانية^(٧).

وكان على بريطانيا أن تشرك حليفاتها فرنسا في تقويض صرح الإمبراطورية العثمانية ولم يبد الأمر سهلاً في أوّل الأمر. كان وزير الخارجية الفرنسي (ديلكاسيه) مثلاً يرى أن المحافظة على الإمبراطورية أهم بكثير من قيام فرنسا بضمّ سورية وهو ما اقترحت عليه بريطانيا^(٨). وما حصل هو أن (مكماهون) الذي مرّ بباريس وهو في طريقه لمزاولة شؤون عمله في مصر، أخفق في إعطاء أجوبة واضحة مقنعة حول السياسة التي إنتوتها حكومته إزاء الأقاليم العثمانية الناطقة بالعربية والأجزاء الشرقية من كردستان بسبب غيابته ومحدودية عقله إلا أن الفرنسيين ترجموا غيابهم وقصوره العقلي بالدهاء وسعة الحيلة. وإعتقدوا بأنه يتعمد إخفاء الحقائق عنهم بالروغان من إعطاء أجوبة مباشرة. وراح الوهم بهم إلى الحد الذي جعل (مسيو مللران) وزير الحرب يستنتج بأن البريطانيين إنما يخططون لغزو سورية!^(٩)، الأمر الذي حمل الحكومة الفرنسية على الأمر فوراً بتجهيز حملة عسكرية لإنزالها في سورية حال إقدام بريطانيا على عمل مماثل. إلا أن اجتماعاً تالياً تمّ بين وزيري خارجية البلدين أكّد فيه اللورد (أدوارد غري) لزميله الفرنسي أن بريطانيا لا أطماع لها في سورية. وحينئذ إتفق الطرفان على أن لاتعارض بريطانيا في الوجود الفرنسي في حالة أيلولة الحرب

٧- إرتقت بكلایتون المناصب ليبلغ رتبة جنرال مبتدئاً برتبة نقيب. ويبدو أنه كان شخصية رائعة رفيعة الخلق. من أولئك الشبان المغامرين وبينهم (لورنس العرب) والطلاب الأركيولوجيين وصغار المستشرقين الذين عملوا في المكتب العربي وهو دائرته. ليس هناك أحدٌ إلا ويلهج بالثناء عليه وإمتداح قابلياته. وسيأتي الحديث عنه.

٨- كانت فرنسا في أوائل العام ١٩١٤. توظف ما نسبته ٤٥ بالمائة من مجموع أموالها الموظفة خارجياً في الإقتصاد العثماني. ولها ما يبلغ ستين بالمائة من الديون العثمانية العامة (مذكرات ستورز: نيويورك ١٩٣٧. ص ٦ Stores Memoirs).

٩- كريستوفر اندرو وكانيا فورستر: أوج التوسع الفرنسي ١٩١٤-١٩٢٤. Christopher Andrew
Kanya Forester: The Climax of The French Expantion 1914- 1924. مطبعة جامعة ستانفورد

١٩٨١. ص ٢٠.



عبدالرزاق بدرخان

الى تجزئة إمبراطورية آل عثمان « وإن كان من الأفضل أن لا تتجزء ».

وإستقر رأي بريطانيا أخيراً على أن تتصل من مكتبها في القاهرة - بالعرب والزعماء المسلمين لإحلال نوع من التنسيق. ولم يحصل أي إتصال كردي من هناك طوال العامين ١٩١٤ و ١٩١٥ لا من جانب المكتب ولا من جانب القوميين الكرد في حين كان كما أوردنا - عددٌ من الشخصيات الكردية قد اتصلَ بروسيا حليفة هاتين الدولتين. على أن عبدالرزاق بك وكامل بك بدرخان كانا قد إتصلا

بالفرنسيين أثناء وجودهما في باريس منفيين على أثر انقلاب الجون ترك في ١٩٠٨ لمعرفة نواياهم إلا أن الجهات الفرنسية لم تُبد أي اهتمام بما عرضا. فنقلا نشاطهما الى روسيا كما مرّ بيانه. ومما يذكر في هذا الصدد أن الروس على أثر إحتلال شرق الأناضول في أوائل العام ١٩١٧ بادروا بتعيين كامل بك وعبدالرزاق بك بدرخان واليين على ولايتي أروروم وبتليس على التوالي. ومما ذكره ميجر نوئيل في مذكراته أن عبدالرزاق الذي بقي يتصدر النشاط القومي الكردي في بوتان حتى العام ١٩١٨ دس^(١٠) له الترك سُمّاً وهو في الموصل وتمّ التخلص منه قبل أن تلفظ الإمبراطورية آخر أنفاسها.

أمكن أن يتخذ تعيين الروس هاتين الشخصيتين الوطنيتين الكرديتين حاكمين لولايتين تقطنهما أغلبية كردية دليلاً على طروء تغيير فجائي في سياسة روسيا القيصرية إزاء التطلعات القومية الكردية؟ من الصعب الإجابة على هذا السؤال لأن

١٠- نوئيل: المرجع السالف ص ٦٣. في حين ذكر أن كامل بك كان في ايلول ١٩١٩ موجوداً في تفليس». [يراجع عن نشاط كامل بك وتفاصيل سيرته. كتاب «بدرخان وجزيرة بوتان لمؤلفه «ماليسانثر - ترجمة شكور مصطفى. أربيل ١٩٩٨ - الص ١٤٤-١٥١» توفي في ١٩٣٤ ودفن في تفليس.].

تلك الولاية لم تمتد لأكثر من بضعة أسابيع إنتهت بعد أشهر قتال بل بإنحلال الجيش الروسي على أثر قيام ثورة أكتوبر.

كان في القاهرة عضو آخر من أسرة بدرخان هو ثريا، الابن الأكبر لأمين عالي ابن الأمير الكبير بدرخان بك، متفرغاً للنشاط القومي الكردي في العاصمة المصرية بإصدار جريدته كردستان بحرية وبالاسم المستعار «عزيز أحمد» بموافقة البريطانيين بطبيعة الحال.

ومما لاشك فيه وكما سنرى فيما بعد أن البريطانيين الذين لم يضعوا بعد الكردي في حساب معادلاتهم السياسية لمستقبل الشرق الأوسط. إهتموا مع هذا بمتابعة علاقة الروس بهم. فمثلاً ذكرت جيرترود بل «أن الروس إهتموا كثيراً بالسيد طه. وهياًوا له مقراً دائماً في راژان القريبة من أورميه وأشيع أنه لو قيض للكردي الحصول على الإستقلال، فسينصب سيد طه رئيساً لدولتهم تحت الحماية الروسية^(١١). إلا أنهم نزعوا ثقتهم به بعد أن علموا بصلات له مع الترك وقد إعتقله الجانبان كل بدوره. إلا أن الروس نقموا عليه بنوع خاص لعلاقته الطيبة بالألمان ووجود نوع من المراسلة معهم. فإنتقموا منه بتدمير منزله في (نهرى) العام ١٩١٦ عند مرورهم بها»^(١٢).

وينبئنا نيكيطن أنه وفي حدود ١٩١٧ تلقى رسالة من جمعية تطلق على نفسها (استخلاصي كردستان جمعيتي = جمعية إنقاذ كردستان) على شكل خطاب من سيد طه يطلب فيه من نيكيطن ترتيب مقابلة له مع القادة العسكريين الروس لوضع خطة للعمل المشترك في سبيل تحرير كردستان^(١٣). كما تشير جيرترود بل الى علاقات للسيد طه وعمه الشيخ عبدالقادر بالدبلوماسيين الروس في كل من طهران وتفليس.

ما الذي كان يمنع البريطانيين من الاهتمام بالقضية الكردية في مفتتح الحرب؟ لم يكن هناك قصور من الوطنيين الكرديين فضلاً عن محاولات ثريا بدرخان في القاهرة كانت هناك شخصية وطنية أخرى تسعى في هذا الإتجاه.

في كانون الأول ١٩١٤ عرض الجنرال محمد شريف پاشا^(١٤) خندان على البريطانيين

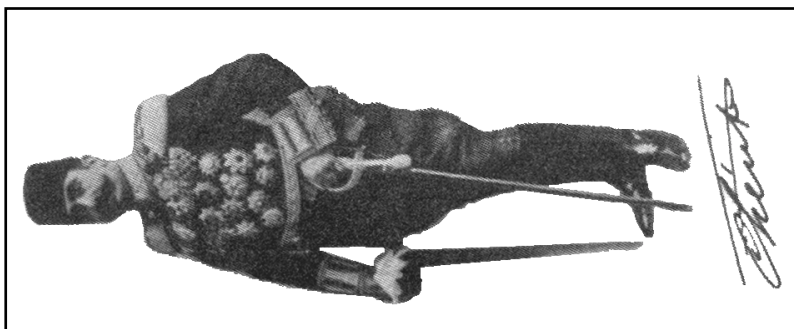
١١- المرجع السالف ص ٦٥.

١٢- المرجع السالف ص ٦٩.

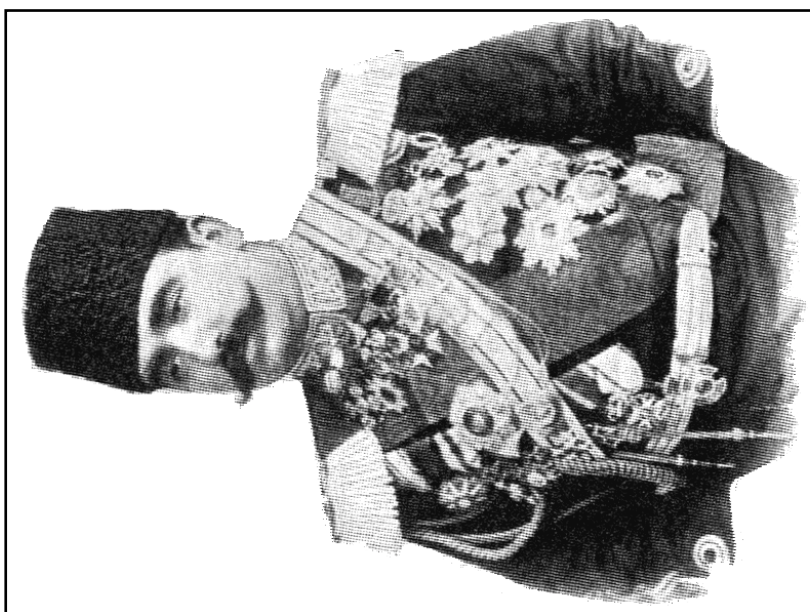
١٣- الكردي (نيكيطن) المرجع السالف ١٩٥.

١٤- كرر الجنرال محمد شريف خندان عرضه هذا في حزيران ١٩١٨ بعد أن أصبحت نتيجة الحرب =

الجنرال محمد شريف پاشا خندان



الجنرال محمد شريف پاشا خندان



إنشاء علاقات وتعاون مع الحملة العسكرية المنتواة إرسالها الى ميسوپوتاميا لحماية آبار النفط في عبادان لتنتهي بالأخير الى الحرب العراقية. كان يهدف الى الحصول على تأكيدات حول مستقبل كردستان لكن مساعيه خابت ولم تلق أذناً صاغية ربما لأن

= واضحة. وتذكر غيرتروود بل ان ذلك جرى في مارسيليا بينه وبين السر بيرسي كوكس كبير الضباط السياسيين الملحق في الحملة (المرجع السالف ص ٦٠) حين يذكر ولسن في «الولاءات Loyalties» ج ٢، ص ١٣٠، أن المقابلة تمت في لندن:

إشارة الى برقيتكم المؤرخة في ٢٦ ايار سيمر سر بيرسي كوكس بمدينة مرسيليا في ٢ حزيران فيرجى ترتيب لقاء له بالجنرال شريف بالتأكيد. وهنا رسالة من سر بيرسي كوكس الى سايكس. بتاريخ ٨ حزيران ١٩١٨:

عزيزي سايكس: أجريت فعلاً محادثات مع شريف پاشا. وأرسل اليك مذكرة بخصوص ماجرى وهي تغني عن الشرح. بعثت بنسخة منها الى شكيره مع هذا البريد طبقاً للتعليمات التي تلقيتها من وزارة الخارجية. التقيت الجنرال شريف پاشا في مرسيليا في ٣ حزيران ١٩١٨. انه من أكراد عشيرة الجاف ومن منطقة السليمانية لكنه لم يزر كردستان الجنوبية منذ صغره. وفيما يتعلق بنا يقول إنه كتب مذكرة لنا في ٢٣ من تشرين الثاني ١٩١٤ وعرض خدماته لما له من صلة وعلاقة بالشؤون الكردية في وقت مبكر من الحرب وقلت له إنني مهتم بمناقشة أي اقتراح يرتي تقديمه. فقال رداً. انه ببساطة يميل بصفته شخصاً كردياً الى الاهتمام بقضايا وطنه ومن الأهمية في رأيه أن نتخذ نحن الإنجليز خطوات إيجابية من أجل توحيد الأكراد جميعهم ولتحقيق هذه الغاية يتعين علينا أن نصدر تصريحاً عن سياستنا المقبلة تجاههم كالحكم الذاتي للأكراد. وقد أعطاني عنوان أحد انجاله الذي يعيش في الإسكندرية. وقال ان له أملاكاً في البصرة. وطلب أن أقابل ابنه هذا وأنا في طريقي الى هناك وهو ما سأحاوله» ويظهر ان علاقة ما ظلت بين السر بيرسي وبين الجنرال شريف پاشا. ففي مذكرة كتبها كوكس لحكومته Fo. 371-5069 - مؤرخة ٨ حزيران ١٩٠٩ بين أن شريف پاشا لا يعمل بنية خالصة وإنما كان يطمح ليكون رئيساً لدولة كردستان المستقلة المقبلة. إلا أنه (وكان الحاكم المدني العام وقتذاك) لا يراه مناسباً لهذا المنصب الرفيع بسبب سنه المتقدمة. وكذلك بسبب إقامته الطويلة في باريس - وخارج كردستان.

والظاهر ان اللقاء تم إثر برقية بعث بها اللورد داربي السفير البريطاني في باريس بتاريخ ٢٦ أيار ١٩١٨ كان رد الوزارة [Fo. 371-3398] المؤرخ ٢٨ أيار.

عرف الجنرال شريف پاشا أيضاً بإسم شريف صبري. ولد في أستنبول لسعيد پاشا الفريق أحد وزراء الخارجية العثمانية وأصله من السليمانية وبلغ رتبة فريق في الجيش العثماني. إقترن بالأميرة أمينة عبدالحليم حفيدة محمد علي پاشا الكبير. وهي أخت للمصدر الأعظم (رئيس الوزراء) العثماني محمد سعيد پاشا. في ١٨٩٨ أرسل الى السويد وزيراً مفوضاً وكانت له علاقة صميمة بملكها وهو سر إقامته الطويلة هناك. عاد الى أستنبول في ١٩٠٩ ليتمهم بضلوعه في اغتيال محمود شوكت پاشا المصدر الأعظم في ١٩١٣. إلا أنه كان قد هرب وحكم عليه بالإعدام غياباً. وإستقر في مرسيليا ومونت كارلو. وكان يغشى منزله مجموعة من المفكرين والكتاب ورجال السياسة والفنانين وفيه تعقد لهم الندوات. توفي في فرنسا العام ١٩٤٤.

البريطانيين ما كانوا في حينه يتصورون بأن العمليات العسكرية في جنوب ميسوبوتاميا ستنقلهم الى مسافة بعيدة حتى كردستان الجنوبية. هناك عاملٌ لا يقلُّ شأنًا عن هذا.

الفكرة العامة التي سيطرت على صانعي السياسة البريطانية منذ دخول بريطانيا حلبة الصراع في الشرق الأوسط ظلت قائمة عندما تحولت عن دعم الإمبراطورية العثمانية الى العمل على تقويضها على الأقل خلال السنوات الثلاث الأولى من الحرب العظمى. فقد رأى الوايت هول العالم الديني الإسلامي بمثابة بناءٍ مركزي يحتل الخليفة- السلطان المقام الأعلى فيه. وان الإسلام هو وحدة كاملة مثلما هو منظمة تطيع زعماءها وتأتمر بأمرهم وانه يمكن أن يُشرى أو يوجّه بشراء أو توجيه أو أمر يصدر الى زعامته. ومن هنا إستهوتهم الفكرة بأن كلّ من يستطيع السيطرة على الخليفة فانه يسيطر على الإسلام بشعوبه وأممّه. لذلك ما كانوا إذ ذاك يقيمون وزنًا كبيرًا للمشاعر القومية. وهو ما كان يؤمن به رجال المكتب العربي الملحق بدائرة المعتمد البريطاني في القاهرة. إلاّ انهم تبينوا خطأهم بعد فترة من الزمن وعبر تعاملهم مع الشريف حسين ابن علي أمير مكة فترة من الزمن. وبدا خطأهم هذا لهم عندما أوصوا الوايت هول بان أليق المرشحين للخلافة وأظهرهم هو أمير مكة العربي الذي حققوا إتصالاً به في نهاية صيف العام ١٩١٤ - ليتبينوا بأنّه لا يوجد أي شيخ أو أمير عربي في الجزيرة مستعدّ للجلوس مع أمير أو شيخ عربي آخر أو الرضى بزعامته. وان إمامة الشريف في مكة لاقبيمة لها مطلقاً ولا تأثير في هذا الباب. وعزّ على البريطانيين إعادة النظر في تقديراتهم بالأول^(١٥).

١٥- ينوه (ستورز) في مذكراته بأنّ مصدر معلوماته هذه وغيرها كان الضابط العثماني المتقاعد عزيز علي المصري. مؤسس (جمعية العهد) وهو تنظيم سرّي عسكري ضيق النطاق تألف في استنبول وأسس له فروعاً في مدن أخرى (دمشق، بغداد، الموصل، بيروت، حلب...) وقوامه ضباطُ عرب عاملون في الجيش العثماني نقموا بعد الانقلاب الدستوري على السياسة المركزية التي إتبعها الإتحاديون ورفضهم إعطاء البلاد الناطقة بالعربية سهماً أكبر في السلطة المركزية. كما كانوا ينقمون على سياسة التتريك تحت ستار الجامعة «العثمانية» ويرون عند عدم الإستجابة لهذا المطلب التحول الى اللامركزية أي بمنح البلاد الناطقة بالعربية مزيداً من الحكم الذاتي (ستورز. المذكرات. المصدر السالف ص ١٨٠).

في تلك الأثناء كان (كلايتون) على إتصالٍ بعدد من اللاجئين العرب في القاهرة. دأبوا على الإجتماع في المقاهي وغيرها من الأماكن العامة، والحوار والمناقشة عمن يكونه العرب؟ وعما يجب أن تفعله الشعوب الناطقة بالعربية في الإمبراطورية العثمانية. مسألة الهوية القومية هذه كانت تثار أيضاً في دمشق وبيروت. بل كانت موضوع بحث وجدال بين الطلاب العرب بپاريس منذ بداية الربع الأخير من القرن التاسع عشر لتؤدي مما أدت الى تأليف جمعيات وطنية ونوادٍ أدبية وأحزابٍ سياسيةٍ سرّية.

كان الشريف حسين - عندما بدأت إتصالات المكتب به. يحكم مكّة نيابةً عن السلطان. وإنحداره من العترة النبوية كان شرطاً لتوليته المنصب جرياً على التقليد الذي اتبعه سلاطين آل عثمان منذ ضمّ الحجاز الى الإمبراطورية. في العام ١٩١٤ كان الشريف كهلاً يبلغ من العمر الستين، بعيداً عن روح العصر والتجديد قضى معظم حياته في إسارٍ مترفٍ في العاصمة ولم تسجّل عليه خلالها هفوة اخلاقية واحدة بل عرف بالثقى وبانه كان يقضي جلّ حياته في الصلاة وترديد الأدعية.

ودهش موظفو المكتب العربي في القاهرة عندما تسلموا رسالةً منه صيف العام ١٩١٥ يطلب فيها لقاءً تعاونه ومن دون سابق إنذار أو إعطاء أي تفسير - أن يوضع تحت حكمه كلّ عرب آسيا في مملكةٍ مستقلة، لم ينس تحديدها بدقة مدخلاً فيها جزءاً كبيراً من الوطن الكردستاني وهو بالضبط كردستان العراقية التي تتضمنها ولاية الموصل بحدودها المرسومة آنذاك فضلاً عن جزءٍ من شمال شرق سورية الحالية تقطنه أغلبية كردية.

في تلك الأثناء كانت الحملة البريطانية في ميسوپوتاميا تتعثر وتعاني والتماساً الأنكلو الكردي بعيداً تماماً عن الأذهان.

ولم يظهر أسمٌ لكردستان والکرد في تقرير اللجنة التي شكلها رئيس الوزارة البريطانية (اسكويث)، برئاسة السرّ موريس دي بُنسن Morris de Bunsen حول مستقبل الشرق الأوسط وما تريده بريطانيا منه وشكل الحكم الذي ستأخذ به لها. ذكر أن اللورد اسكويث قال معقباً عندما وضع التقرير امام أعضاء حكومته وبدأ النقاش حول مستقبل الأراضي الخاضعة للإمبراطورية:

«إن مناقشتنا تشبه مناقشة عصاة من القرصان» لكنه أستدرك فقال

«لو اننا تركنا الدول الأخرى تتدافع بالمناكب لتتخاطف تركيا دون أن نأخذ شيئاً لأنفسنا. فإننا لانقوم بواجبنا»^(١٦).

دي بنسن كان موظفاً دبلوماسياً. وتقريره كان بمثابة توصية بما وجب على بريطانيا المطالبة به عند تسوية سلمٍ عثمانيّة. وهذه اللجنة التي شكلت في ٨ نيسان ١٩١٥ ضمّت خلافه ممثلاً واحداً عن كل من وزارة الهند ووزارة الحرب والخارجية والبحرية ودوائر أخرى. لكن تبين أن صاحب الدور الرئيس فيها والكلمة النافذة ومجمل الآراء التي تضمنها التقرير الذي فرغ منه في ٣٠ حزيران لم يكن غير السرّ مارك سايكس الذي قدر له أن يسهم اسهاماً سياسياً خطيراً في مصائر البلدان الناطقة بالعربية^(١٧) وفي كردستان الى حدّ ما. وبوحي منه وإدارته بحث التقرير في الخيارات المتاحة لبريطانيا وناقش الفوائد النسبية لمختلف أنواع الإستقرار الأرضي: إلحاق الأقاليم العثمانية بالحلفاء، تقسيم الأقاليم الى مناطق نفوذ بدلاً من ضمها. ترك الإمبراطورية العثمانية كما كانت بعد إخضاع حكومتها للحلفاء. احلال إدارة لامركزية بخلق وحدات سياسية تتمتع بشيء من الحكم الذاتي؟

١٦- هـ. هـ. اسكويث: رسائل الى فينيتيا ستانلي H. H. Asquith: Letters to Venetia Stanley. لندن. مطبعة أكسفورد ١٩٨٢، ص ٥١. بريتون كوير، المرجع السالف، الص ٤٠-٤٢. [قلنا هيربرت هنري اسكويث (١٨٥٢-١٩٢٨) رئيس حزب الأحرار ترأس الحكومة بين ١٩٠٨ و ١٩١٦. أضطر الى الإستقالة بسبب إضطراب سياسته خلال الحرب وتركها لزميله لويد جورج].

١٧- أرى أن اخصّ بشيء هذه الشخصية السياسية المؤثرة التي سيرد عنها الكثير في الصحائف التالية. كان وقتذاك في حدود ٣٦ عاماً. ينتمي الى عائلة نبيلة غنية. في ١٩١١ أنتخب عضواً في مجلس العموم. قام خلال فترة دراسته في جامعة كمبردج وبعدها برحلات ارتياد واسعة في تركيا الآسيوية ونشر وقائع رحلاته فإستطارت شهرته بوصفه واحداً من ألمع خبراء حزب المحافظين في الشؤون العثمانية. وقضى أربع سنوات ملحقاً في السفارة البريطانية بأستنبول. وكان رساماً كاريكاتورياً بارعاً. ويسبب من مواهبه ومعارفه الواسعة أمّن علاقات حميمة مع كثيرين من الشخصيات السياسية. وعندما إندلعت الحرب إجتهد في أن يجد لنفسه عملاً يستخدم فيه معلوماته وخبراته عن الشرق الأوسط. وكتب في ١٩١٤ رسالة لونسونون چرچل. فلم يردّ عليه إلاّ انه دخل في مدار اللورد كتشنر وزير الدفاع عن طريق سكرتيره الخاص المقدم فتز جيرالد ليغدو موظفاً في وزارة الحرب وهناك جدد علاقته بالزميل القديم مكدونو مدير الإستخبارات العسكرية الذي قرّبه الى اللورد كتشنر فضمّ الى لجنة دي بنسن ثم ضمّ الى المكتب العربي ليغدو واحداً من أبرز أعضائه. توفي في باريس ١٩١٩ بالأنفونزا وهو الوفاء الذي عمّ أوروبا وهلكت به الملايين.

بالأخير رست على هذا البديل الأخير وراحت تدرس عرض الشريف المكي بشكل جدي. إلا أن بريطانيا لم تكن اذ ذاك تستطيع تقديم وعود للحسين دون موافقة فرنسا. والفكرة التي إستقرت في ذهن السرّ مارك سايكس وقد بات أحد أساطين السياسة في المكتب العربي بنفوذ كبير في دوائر الوايت هول - وحملها الى لندن هي أن العرب أهمّ من الفرنسيين. وتلك فكرة فجّة سخيّة إذا ما وضعت أمام المنطق والتجربة العملية ففرنسا دولة صناعية كبرى. دفعت الى ميادين الحرب بشمانيّة ملايين جندي. ومستعمراتها الواسعة الأرجاء تلي مستعمرات بريطانيا مساحة. إلا أن البريطانيين كانوا قد بدأوا مفاوضاتهم مع فرنسا بخصوص مصائر الشرق الأوسط قبل إتصال الحسين بهم. وذلك لم يكن بوسعهم الإلتزام بشيء له أو مناقشة مقترحاته حول الحدود التي ستمتد اليها مملكته المنشودة. ولذلك وبعد أن خولّ الوايت هول المندوب السامي ماكماهون إعطاء الحسين الوعد المشهور في ٢٠ من تشرين الثاني ١٩١٥، طلب وزير الخارجية البريطاني إدورد غري من نظيره الفرنسي إرسال وفد الى لندن للبحث في مستقبل سورية وحدودها من أجل تحديد مدى حرية حكومته في التعامل مع الحسين [الذي أدخل سورية كلها ضمن حدود مملكته^(١٨)] ولذلك لم تكن رسالة مكماهون وحدها موضع بحث. بل كانت هناك المفاوضات مع فرنسا وروسيا، وبالأخير مع إيطاليا. تلك المفاوضات التي خرجت بإتفاق سايكس-بيكو-سازانوف ويعرف عند المؤرخين العرب بالإسمين الأولين فقط. الإتفاق الذي أدخل أجزاء من كردستان ضمن دائرة المحادثات السياسية لأوّل مرة خلال الحرب.

رأس الجانب الفرنسي [فرنسوا جورج بيكو] ورأس الجانب البريطاني السرّ آرثر نيكلسن معاون السكرتير الدائم لوزارة الخارجية في مبداء الأمر. وكانت المفاوضات قد بلغت طريقاً مسدوداً عند وصول (مارك سايكس) في كانون الأول ومامت أيام على وصوله حتى حلّ محلّ (نيكلسن).

كان مارك سايكس الكاثوليكي المذهب من محبّي فرنسا. وقد رغب من كلّ قلبه في إنجاح المفاوضات حيث فشل سلفه فلم يجد مانعاً بل ربما وجده ضرورياً أن تتولى فرنسا حماية مسيحيي سورية ولبنان وفلسطين. وهو فضلاً عن هذا لم يكن يملك تلك الخبرة

١٨- تشمل سورية ولبنان وفلسطين وإسرائيل الحالية.

السياسية التي يملكها (بيكو) ذلك الدبلوماسي الحاذق ذو الخبرة الطويلة في شؤون المستعمرات فضلاً عن وجهة نظره السالفة المعروفة عن سورية وكان الإتجاه العام في فرنسا هو لزوم إحتفاظها بسورية «إنجازاً لرسالتها التاريخية Mission Historique على حدّ تعبير [مسيو پييراتين فلاندان] زعيم الحركة الفرنسيّة- السورية في مجلس الشيوخ.

وكان من خطّة (بيكو) التظاهر لـ (سايكس) بأن فرنسا لا ترضى بأقلّ من حكم مباشر لسورية، حتى انه عندما يقوم بتعديل إدعائه - يستطيع الحصول على تنازلات بالمقابل والذي كان يأمل الحصول عليه هو توسيع مجال النفوذ الفرنسي شرقاً ليشمل ولاية الموصل. وفي مناورته هذه التي إعتبرها سراً، لم يكن يدري أن (سايكس) ومن ورائه (اللورد كتشنر^(١٩)) ينويان إعطاءه الولاية. إذ كانا يريدان أن يمتدّ النفوذ الفرنسي من البحر الأبيض المتوسط غرباً حتى أقصى الشرق الذي تمتد اليه حدود الإمبراطورية العثمانية الزائلة ليكون الفرنسيون بمواجهة روسيا عاملاً لوقف إمتداد النفوذ الروسي وراء المناطق الكردية والتركية وهي المناطق التي تسكنها أغلبية عربيّة وبهذا يحققون التوازن بين الإثنين. بكلمة أخرى لتقوم فرنسا هناك بمثابة سور الصين حامية للممتلكات البريطانية في الشرق الأوسط. كان البريطانيون وقتذاك مستعدين حتى للتضحية بمصادر النفط في ولاية الموصل في سبيل وضع فرنسا بمواجهة الروس. وبرأي [ماريان كنت]:

«من وجهة النظر العسكرية كان مبدء دقّ أسفين في أراضٍ خاضعة للفرنسيين بين أي مجال نفوذ فرنسي وبين القفقاس الروسي يبدو أمراً حسناً من أي جهة نظرت إليه»^(٢٠).

من ناحية أخرى كان (سايكس) يطمع في الموافقة الفرنسية على الحملة المصرية. فأكدّ لحكومته منذراً بأنّ مسيحيي سورية لن يقبلوا بأيّ شكل من الحكم لأمير مكة.

١٩- H. H. Kitchner (١٨٥٠-١٩١٦). فيلدمارشال وزير الدفاع ١٩١٤-١٩١٦. في العام ١٨٩٨ هزم المهدي في موقعة أم درمان في السودان وأعاد سيطرته على الخرطوم. توفي غرقاً وهو في طريقه الى روسيا عندما اصطدمت سفينته بلغم بحري.

٢٠- ماريان كنت: النفط والإمبراطورية. السياسة البريطانية ونفط ميسوپوتاميا Marian Kent: Oil and Empire: British Policy and Mesopotamia oil 1900-1920 لندن ١٩٦٧، ص ٨٩.

وعاد (كامبون) السفير الفرنسي في لندن الى تأكيد ذلك بقوله أن الحكم الفرنسي هناك ضروري للحيلولة دون نشوب حرب أهلية دينية.

بالأخير حصل الإثنان، كلٌّ على ما يريده من الآخر: فرنسا، ستحكم لبنان الكبير وتبسط نفوذاً لانزاع فيه على سورية وتحصل على نفوذ يمتد الى ولاية الموصل في حين تبقى ولايتا بغداد والبصرة للبريطانيين. وبقيت فلسطين عقبة فقد أرادها (سايكس) لبريطانيا في حين أصرَّ (بيكو) على ضمِّها الى النفوذ الفرنسي. وبالأخير توصل الطرفان الى حلٍ وسط: ان تحصل بريطانيا على مينائي حيفا وعكا وحزام أرضي تمُدُّ فيه سكة حديد منهما حتى ميسوپوتاميا. في حين تناط إدارة البقية بهيئة دولية وماعدا هذا في الشرق الأدنى تؤلف منه دولة عربية أو نوع من الكونفدرالية لعدد من الدول المستقلة إسمياً إلا أنها عملاً ستكون في مجالي النفوذ الإنكليزي والفرنسي على أن تطلق يد روسيا في بقية الآيات العثمانية الشمالية الشرقية بأغلبيتها الكردية. وقّع الإثنان هذا الإتفاق في الثالث من شهر كانون الثاني ١٩١٦. وكان عليهما أن يشركا الحليف الكبير الثالث روسيا فيه ويحصلوا على موافقتها.

في أوائل شباط من السنة عينها وبعد أن حظي الإتفاق بمصادقة الحكومتين شد مهندساه الرجال الى سان بطرسبورغ لنيل التوقيع الروسي. لم يكن (سايكس) يعلم ان الحكومتين الفرنسية والروسية توصلتا فيما بينهما الى حلّ قضية فلسطين الشائكة من خلال مفاوضات سرية جرت في السادس والعشرين من نيسان ١٩١٦. وفيها فُصلت الحدود التي كان سيُمتد إليها نفوذ الدولتين بعد زوال الإمبراطورية العثمانية ويتضمن الإتفاق تعهد روسيا بدعم فرنسا في المفاوضات التي ستجرى مع بريطانيا حول شكل الحكومة المقترحة لفلسطين كما تضمنت أيضاً الاعتراف بان التسوية التي تمت في كانون الثاني ١٩١٦ بخصوص السيادة الفرنسية وشكلها غير نهائية وان ذلك سيكون من شأن فرنسا وحدها.

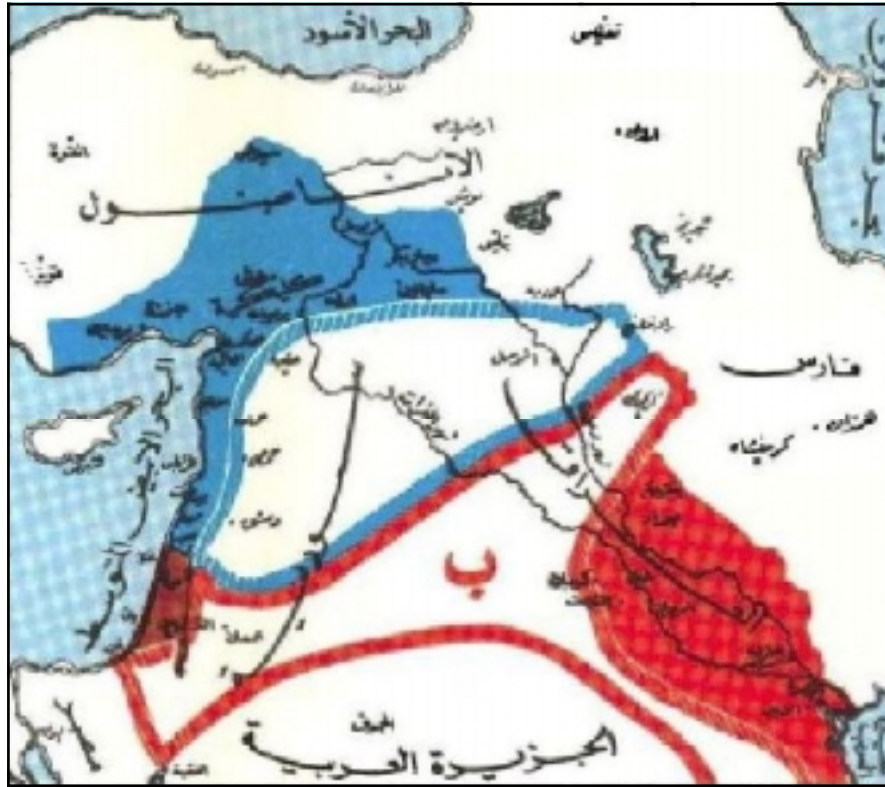
ولم يضع سيرجي ديمتروفتش سazanوف وزير الخارجية الروسي توقيعه على إتفاق سايكس بيكو^(٢١) إلا بعد أن دُيِّل بملحق له يبيّن حصّة روسيا من كردستان^(٢٢).

٢١- لم ينشر تصريح بلفور بإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين إلا في السابع من تشرين الثاني ١٩١٧ ولذلك لم يجر بحث إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين لا أثناء المفاوضات الثنائية =

طبعاً بقي أمير مكة يجهل التقسيم. وفي مصر قام (سايكس) بتقديم صديقه (بيكو) لمجموعة من رجال العرب المبعدين. ثم أخذه الى جزيرة العرب في زيارة للشريف وقيل انهما أطلعوه على الإتفاق وهذا محض هراء لأن محتوى الميثاق كان يناقض تماماً ماطالب به الحسين وما كان يأمله، بدليل أنه صدم به حال إذاعته ونشر بنوده في العام ١٩١٨. إلا أن المكتب العربي أندر سايكس بأن التواجد الفرنسي في الشرق الأدنى قد يتمخض بمأس. لكن (سايكس) مضى قدماً في محاولة التقريب بين بيكو وبين الحسين وأولاده. وفي النهاية أبرق الى حكومته «توصل بيكو الى تفاهم مع العرب!»

= ولا في سان بطرسبرغ. ومن الجدير بالذكر أن الروس لم يكونوا يكتفون أي عطف لليهود ولا لدعواهم بإنشاء وطن قومي في فلسطين. وفي العاصمة الروسية تم إقناع (سايكس) بأن الصهيونية اليهودية قوة خطيرة معادية لروسيا. وهي عدوة خطيرة للبلاد الأخرى. غير أن (سايكس) أبلغ وزير خارجيته بأنه قال لزميله (بيكو) أن بريطانيا لاتهتم بحيازة فلسطين لكنها مطمئنة للصهاينة وهم يريدونها وعلى الحلفاء أن يحسبوا لهم حساباً فيها وأن يقطعوا جزءاً منها لو شأوا ربح الحرب!

٢٢- تعين في هذا الملحق حدود الجزء الذي سيكون لروسيا من الوطن الكردستاني: وهي كالاتي: الأقليم الواقع جنوب (وان) و(بتليس) ما بين محور موش - سعرد - دجلة - جزيرة ابن عمر. ومنتهياً بخط القمم الجبلية المشرفة على كل من العمادية وميرغور.



تقسيم سورية والعراق وكردستان
بناءً على إتفاق سايكس بيكو سazanوف ١٩١٦

الفصل السادس

حملة ما بين النهرين و كارثة الكوت. إعلان الشريف المكيّ ثورته.
تقدم الحملة وإحتلال بغداد. (لويد جورج) وولاية الموصل (جنوب
كردستان) المساومة مع فرنسا والسعي لإحتلال الولاية عسكرياً.
مقتل إتفاق سايكس بيكو سارزانونف في أعقاب ثورة أكتوبر ١٩١٧
الروسية.

في أثناء ما كان المكتب العربي في القاهرة ينتظر ويحتث قيام ثورة عربية تختم
على مصير الإمبراطورية العثمانية. وقد تصرّف ثمانية عشر شهراً إعتباراً من بدء
الحرب على مفاوضات عقيمة مع الشريف حسين وبعوث ومراسلات. إذ بوزارة الهند
تطلب من المكتب التّدخل لتنظيف وكنس آثار حملة معتوهة سيئة العقبي في مجرى
الحرب ضد الأتراك هي حملة ميسوپوتاميا ذات النطاق الضيق بنتائجها الأولى التي
كانت فشلاً ونكبة تزري بحملة غاليلولي على البوسفور^(١).

فقبل نشوب الحرب بشهر واحدٍ أمرت لندن بإعداد قوة من الهند ترسل الى الخليج
الفارسي لغرض حماية إمدادات النفط من مصفى عبادان من نشاط الجواسيس والعملاء
الألمان التخريبي بين قبائل القشقاي والبختياري في فارس. هذه القوة تحركت في ٦ من
تشرين الثاني نحو الخليج. وهو عين اليوم الذي شهد إعلان بريطانيا الحرب على تركيا.
سقطت (الفاو) بعد ضرب قصير بالمدفعية. وبعدها بأسبوعين إحتلت القوات الأرضية
الصاعدة مدينة البصرة التي تبعد حوالي مائة وعشر كيلومترات عن فم الخليج، خلافاً
للغرض الذي عُهد به اليها وهو حماية حقول النفط من هجومٍ في فارس.
والمقاومة التركية كانت ضعيفة. والبصرة تبعد مئات كثيرة من الكيلومترات عن

١- يراجع للتفاصيل كتاب: سي جيّ لو و م. ل. أوكيل: سراب السلطة، (ج ٢) سياسة بريطانيا
الخارجية ١٩١٤-١٩٢٢ Vol 2: British Foreign Policy 1914-1922. ط. لندن ١٩٧٢. الص ٢٨٨٩ وما بعدها.

مركز حشد القوات التركية وإمدادها بالقرب من بغداد. لذلك تمكنت القوات البريطانية من صدّ هجمات معاكسة. وشتّت شمل القوات النظامية وقوات العشائر الملبية دعوة الجهاد بسهولة تامة في معركة الشعيبية. إلا أن الفريق (سر جون نيكسون) المعين حديثاً لقيادة الحملة كان طموحاً وقد غرّته الانتصارات الأولى. فما أن تسلّم القيادة في نيسان ١٩١٥ حتى بعث بقوة يقودها أمير اللواء (چارلس فيرس طاونسند) صعوداً بمحاذاة دجلة وراء إنتصارات جديدة وبكثير من العجلة وقلة تبصر أو ربما سعيّاً وراء هدف استراتيجي معين. بالأخير أمر نيكسون هذه القوة بالزحف على بغداد، رغم إحتجاج طاونسند ومخاوفه وتطيّره من النتائج. إذ كان بين البصرة وبغداد مسافة تزيد عن ستمائة كيلومتر. والزحف لقطع هذه المسافة مع التعرض للعدو والمعارك المحتملة، كان يحتاج الى خبرة سوقية عالية وقوات كبيرة ووسائل نقل نهريّة كافية ومعدات مستشفى ميدان ومدفعية وأعتدة وأرزاق ولم تكن حكومة الهند آنذاك قادرة على تأمين ذلك لحملة مثل هذه.

كانت قوات طاونسند تتقدم عبر أرض قفر ومستنقعات وأهوار لا طرق فيها ولا سكة حديد ولذلك وجب عليها الزحف بمحاذاة دجلة الضحل الكثير المنحنيات الذي يضيع مجراه أحياناً في الأهوار وكانت الحاجة ماسّة الى أسطول من الزوارق تناسيه والبلاد فوق ذلك موبوءة بالمalaria وغيرها من أمراض المستنقعات المألوفة التي تفرض وجود مستشفيات ميدان ومهمات وخدمات طبيّة.

رغم كلّ هذا قاتل هذا الجنرال بصبر وعناد وشقّ طريقه بموهبة قيادية فذة تقرب من العبقرية وكاد يحقق نصراً عزّ نظيره في تاريخ الحروب لو وصلته في الوقت المناسب الأعتدة والأرزاق والتعزيزات التي طلبها. وفي قرية (سلمان باك) التي تبعد زهاء ٣٣ كيلومتراً جنوب بغداد حيث رابطت قوته الصغيرة. علّم أن الفيلدمارشال غولمان فون در گولتسه الذي كان يعدّ واحداً من كبار استراتيجيي عصره - قد تسلّم القيادة العليا لسائر القوات العثمانية في ميسوپوتاميا. كما علم بأن ثلاثين ألفاً من الجنود الأتراك هي على وشك تعزيز الثلاثة عشر ألفاً الذين يواجههم، في حين لم تكن قوات طاونسند تتجاوز هذا العدد وبحالتهم تلك التي وصفناها.

وأدرك طاونسند ببعد نظر أن أقرب موضع يمكنه من الصمود في وجه هذه القوات